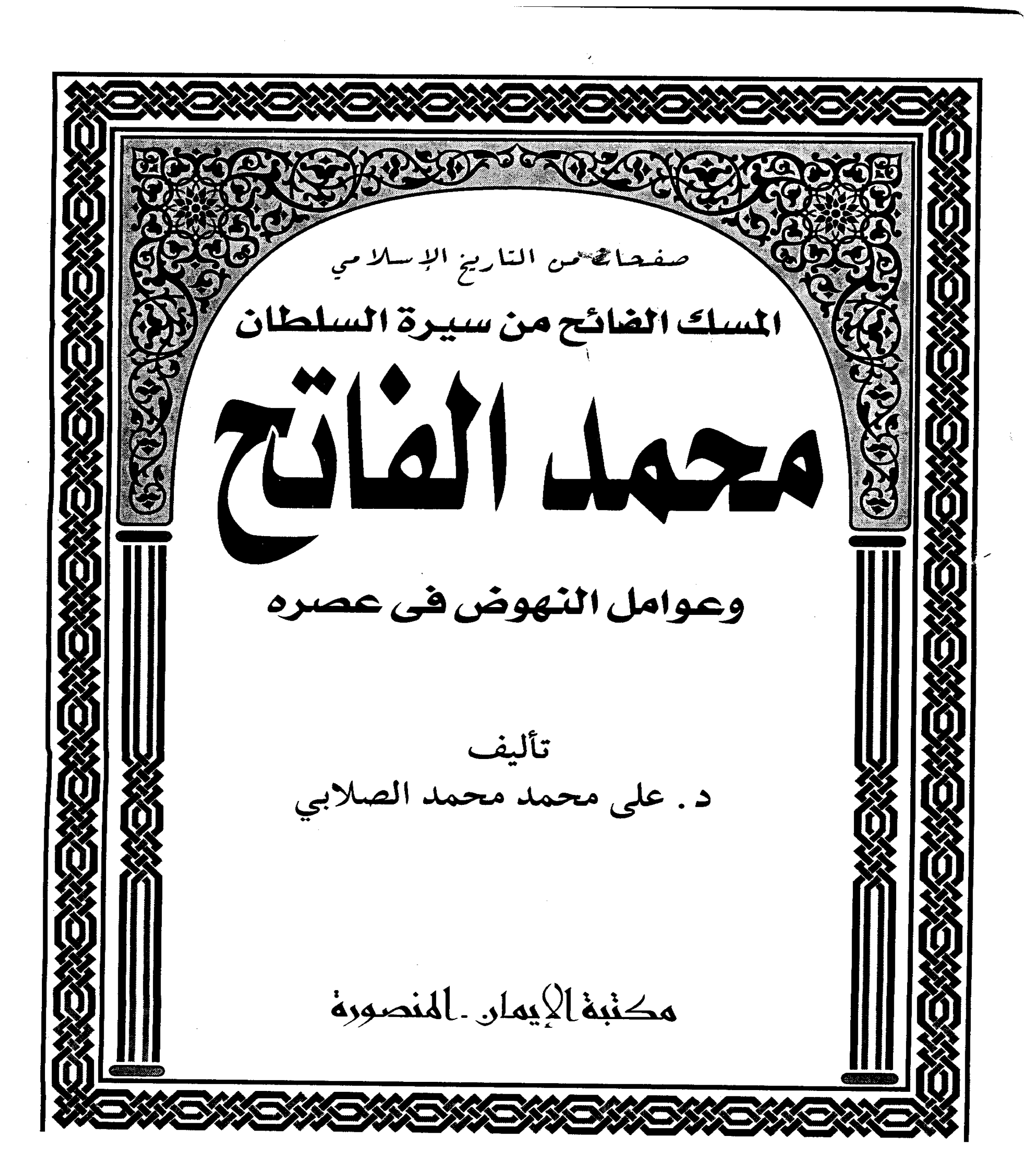


صفحات من التاريخ الإسلامي

المسك الفائح من سيرة السلطان

محمد الفاتح

وعوامل النهوض فى عصره

تأليف

د. على محمد محمد الصلابي

مكتبة الإيمان - المنصورة

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت .

عندما ظهر كتاب الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط في المعارض الدولية كان إقبال الناس عليه كبيرًا ، وقد جاءتني ملاحظات كثيرة عن الكتاب ، وكان مجموعة من القُراء من أماكن متعددة قد اتفقوا على ضرورة إفراد محمد الفاتح بكتاب مستقل ، ووجدت هذه الفكرة قبولاً عند الناشر ، فشرعنا في تنفيذ الفكرة ، فإن بارك الله في العمر والوقت وسهل السبل ، فبإذن الله تعالى سيلحق هذه الدراسة أبحاث على نفس المنهج لإحياء بعض سير أبطال الأمة الذين كان لهم تأثير في تاريخنا المجيد .

إن هذا الكتاب يتحدث عن محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية وقاهر الروم وعن أجداده العظام الذين عاشوا بالإسلام وماتوا في سبيل إعلاء كلمة الله يتحدث عنهم حديثًا منصفًا ، فيبين للقارئ الكريم سيرة عثمان الأول ، وأورخان ومراد الأول ،

وبايزيد الأول ، ومحمد جلبي ، ومراد الثاني ، ومحمد الفاتح ، ويوضح صفاتهم والمنهج الذي ساروا عليه ، وكيف تعاملوا مع سنن الله في بناء الدولة كسنة التدرج، وسنة الأخذ بالأسباب ، وسنة تغيير النفوس ، وسنة التدافع ، وسنة الابتلاء ، وكيف حقق القادة الأوائل شروط التمكين وكيف أخذوا بأسباب المادية والمعنوية ؛ وما هى المراحل التى مرت بها الدولة ؟ وكيف كان فتح القسطنطينية نتيجة لجهود تراكمية شارك فيها العلماء والفقهاء والقادة والجنود على مر العصور ، وكر الدهور ، وتوالي الأزمان ؟ ويبين للقارئ الكريم أن النهوض العثمانى في عصر السلطان محمد الفاتح كان شاملاً في كافة المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية والحربية ، وإن للتمكين صفات ، لابد من توفرها في القادة وبفقدها يفقد التمكين.

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

إن هذا الكتاب يقف بالقارئ على بعض سنن الله في المجتمعات والأمم والشعوب وبناء الدول ، ويوضح أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح ويدعو القارئ الكريم للتأمل في كتاب الله وسنة رسولهﷺ ليفهم فقه إحياء الشعوب وبناء الدول حتى يكسب العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق ، وكتاب الله تعالى مليء بسننه وقوانينه المبثوثة في المجتمعات والدول والشعوب ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦] .

وقد أرشدنا كتاب الله تعالى إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير ، وفي الأزمنة من التاريخ والسير ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨] .

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكير .

قال تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ

﴿الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس : ١٠١ ، ١٠٢] .

إن السنن الإلهية تتميز بخصائص من أهمها : إنها قدر سابق ، إنها لا تتحول ولا تتبدل ، إنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها ، ولا ينتفع بها المعاندون ، ولكن يتعظ بها المتقون ، إنها تسري على البر والفاجر .

ولقد ركزت في هذه الدراسة على آثار تحكيم شرع الله تعالى زمن السلطان محمد الفاتح ، فبينت تلك الآثار ، كالاستخلاف والتمكين ، والأمن والاستقرار ، والنصر والفتح ، والعز والشرف ، وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل ، وتحدثت عن صفات محمد الفاتح وعن أعماله الحضارية ، وتطرقت لوصيته لابنه وهو على فراش الموت ، والتي تعبر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة وقيمه ومبادئه التى آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها ، فشرحتها وبينت أصولها وقواعدها وأيقنت بأن قادة الأمة وزعماءها في أشد الحاجة لدراستها وفهمها وتطبيقها وتعرضت للشبهات التي ألصقت بمحمد الفاتح كالتي افتراها المؤرخ الإنجليزي إدوارد شيبرد كريسي في كتابه تاريخ العثمانيين الأتراك وحاول أن يشوه صورة الفتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقدًا منه وبغضًا للفتح الإسلامي المجيد ، وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حمأة الحقد الصليبي ضد الإسلام ، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية وساقهم إلى أسواق الرقيق في مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك، فنفيت هذه الشبهات من جذورها وأقمت الحجج القاطعة والبراهين الساطعة على الحقائق التاريخية الناصعة التي تبين أن السلطان محمد عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم ، وافتدى عددًا كبيرًا من الأسرى من ماله الخاص ، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم وأمنهم على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وبينت أن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسيًا بالنبي الكريم ﷺ ثم بخلفائه الراشدين من بعده في معاملتهم لأهل الذمة الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم .

ومن ذا ينكر الدور الذي قام به العثمانيون حين استنجد بهم المسلمون في شمال إفريقيا ، يوم زحفت عليهم الجحافل الغازية من إسبانيا وغيرها ، وعلى رأسها الكاردنيال (خمينس) ، مما دفع بالمسلمين في الشمال الإفريقي أن يستنجدوا بالدولة العثمانية التي سارعت في مساندة إخوانها في الدين وبرز القائد العظيم والمجاهد الكبير خير الدين بارباروس الذي راح يجوب البحر الأبيض المتوسط ليطهر الشواطئ الإفريقية الشمالية من الغزاة ، حتى مكن للإسلام فيها مرة أخرى وحمى المسلمين في تلك الديار من شر محقق .

والقسطنطينية التي بشر رسول الله ﷺ بفتحها ، ومن ذا الذي فتحها غير السلطان محمد الفاتح ، الذي وضع خطة غاية في دهاء التدبير وروعة في الإعداد العسكري ودقة التنفيذ ، يوم حمل السفن برًا على جذوع الشجر ، ثم دحرجها وأنزلها إلى البحر خلف البيزنطيين من حيث لا يتوقعون ، مما أدى إلى دحر أسطولهم وهزيمتهم ، وفتح القسطنطينية التي أصبحت فيما بعد عاصمة الخلافة ، وحملت اسم إسلامبول أو إستنابول ، لماذا نحاول أن نطمس تاريخ مثل هذا السلطان محمد الفاتح ، الذي أمضى أيامه ولياليه في خيام الجهاد ، وعلى صهوات الجياد ، ولم يعرف طعم النوم والراحة في المدن والقصور [١] .

لقد تعرضت للعثمانين ، ماذا لهم وماذا عليهم في كتابي الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط .

أما هذا الكتاب فإنه يهتم بسيرة السلطان محمد الفاتح وعوامل النهوض في عصره .

لقد تعرض بعض المثقفين ممن تأثروا بالمناهج الغربية في كتابة التاريخ لما كتبت في سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بالنقد وقالوا: ما دخل العقائد في التاريخ ؟ وما علاقة صفات القادة بالتاريخ ؟ وما علاقة تحكيم الشرع بالتاريخ ؟

(١) انظر : تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء ، يوسف العظم ، ص (١٧٤ ـ ١٧٧) .

وأقول وبالله التوفيق : إن منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتفسير حوادثه يعتمد في أصوله على التصور الإسلامي ، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هي الأساس في منطلقاتها المنهجية ، وفي تفسير حوادثه والحكم عليها ويعلل ذلك الدكتور أكرم ضياء العمري بقوله : إلا أن التفسير الإسلامي للتاريخ منبثق من تصور الإسلام للكون والحياة ، والإنسان ، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى ، وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، فهو لا يخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية كما أنه مبني على دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع متميز عن حركة التاريخ الإسلامي العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه [١] .

لذا ينبغي في تفسير التاريخ الاستمداد من المصادر الشرعية لمعرفة دوافع السلوك في المجتمع الذي نشأ وتكون على هدي الشريعة وشكل حياته وتصوراته وفقًا لها ، وكانت تعليماتها وأوامرها ونواهيها ، موجهة لكثير من حركاته في الدعوة إلى الله، وفي الجهاد في سبيل الله ، وفي التعليم ، وفي بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والاجتماعية ، وفي علاقات المجتمع الإسلامي مع بعضه ومع غيره من المجتمعات .

ولكي يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامي صحيحًا وواقعيًا فإنه يلزمنا معرفة وفهم العوامل التي شكلت المجتمع وتحكمت في حركته وبناء تصوراته وثقافته ، وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهي الشرعية ، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات ؟ وكم منها مائل عنها ؟ لنعرف مدى الأثر الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانية ، ولنعرف كذلك قيمة الخسائر التي لحقت بالمجتمع الإنساني من جراء الانحراف والبعد عن شريعة الله ، وندرك أيضًا فضل الله ورحمته بهذه البشرية ، إذ أخرجهم بهذا الدين من الظلمات إلى النور ، ومن الجور إلى العدل ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ومن الخوف والقلق إلى طمأنينة الإيمان وأمنه . قال تعالى : ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

(١) إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامي ، د . أكرم ضياء العمري ، ص (٣) .

لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

فالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يستمد نظرته ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره وهذا سر المفارقة بينه وبين المناهج الأخرى ، ففي مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه ليس تفسيرًا تبريريًا بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلي على سواه[١] .

ويضيف الدكتور أكرم العمري في ذلك : إنه ليس تفسيرًا ماديًا يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية مثل تبدل وسائل الإنتاج ـ كما في الفكر الماركسي ـ أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجي ـ من مناخ وجغرافيا واقتصاد ـ كما في الفكر الغربي ، بل هو يوضح دور الإنسان ومسئوليته عن التفسير الاجتماعي والتاريخي في إطار المشيئة الإلهية (٢) .

إن الرجوع للمصادر الشرعية والتمكن من فهم العقيدة الإسلامية والالتزام بها وإدراك مدى تأثيرها على معتنقيها شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامي ، فإذا ما اختل شيء منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء متأثرة بالأحوال الفكرية والاجتماعية المحيطة بالباحث ، ولذلك وقع كثير من الكتاب المعاصرين في أخطاء كثيرة بعضها راجع لتقصيرهم في العودة إلى المراجع الشرعية ، وبعضها ناتج عن الغبش في التصور ، وعدم وضوح الرؤيا بالغزو الفكري الأوروبي .

إن المنهج الذي سرت عليه في الدراسات التاريخية هو المنهج القرآني في عرض القصص ، ولذلك اهتممت بإبراز صفات القادة والمسائل العقدية والأصول التي تقوم عليها الدول وتحيى بها الشعوب ، ولنضرب على ذلك مثلاً من القرآن الكريم في ذكر نبي الله داود عليه السلام .

إن المتأمل في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرف على صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له ، وهي تحقق للقائد المصلح كمال السعادة في الدنيا

---

(١) انظر : صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي ، للصلابي ، ص (٥٨ ، ٥٩) .

(٢) انظر : إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامي ، د . أكرم ضياء العمري ، ص (٣) .

والآخرة ، قال تعالى : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٧] . فذكرت هذه الآيات بعض الصفات ، فمنها :

١ ـ الصبر : فقد أمر الله تعالى نبينا محمدا ﷺ على جلالة قدره بأن يقتدى به في الصبر على طاعة الله .

٢ ـ العبودية : فقد وصفه ربه بقوله : ﴿ عبدنا ﴾ وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم ، والوصف بالعبودية لله غاية التشريف ، كوصف محمد ﷺ بها ليلة المعراج ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : ١] .

٣ ـ القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي في قوله : ﴿ ذا الأيد ﴾ .

٤ ـ والرجاع إلى الله بالطاعة فى أموره كلها ، في قوله : ﴿ إنه أواب ﴾ .

وصفه بالقوة على طاعة الله وبأنه أواب دليل على كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح .

وقد ذكر الله تعالى غير ذلك من صفات داود عليه السلام ، وتحدث القرآن الكريم عن الفتنة والابتلاء التى تعرض لها داود عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢١-٢٤] .

وقد ذكر العلماء في الآيات السابقة فوائد عظيمة ، وحكمًا جزيلة وقد تحدث القرآن الكريم بعد آيات الابتلاء على استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام ، قال: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦] .

فقد بين الله تعالى قواعد الحكم في الآيات السابقة تعليمًا للمسلمين :

١ - ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ : أي فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السموات والأرض ، وهذه أولى وأهم قواعد الحكم .

٢ - ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ : أي لا تمل عن الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا ، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار .

إن الآية الكريمة تبين أن الحكم بين الناس ، مرتبة دينية ، تولاها رسل الله ، وخواص خلقه ، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ، ومجانبة الهوى ، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية ، والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي ، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم ، ولا يحل له الإقدام عليه ، وتبين كذلك أن الحاكم ينبغي له أن يحذر الهوى ، ثم تحدثت الآيات بعد ذلك عن مسائل عقائدية مهمة في حياة المسلم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٧ - ٢٩] .

ثم تحدث القرآن عن هبة الله لداود عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] .

وتحدث القرآن الكريم عن صناعة الأسلحة التى كان يقوم بها داود عليه السلام، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ : ١٠ ، ١١] .

وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاف ، إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له ، أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذي هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع ، ولا شك في خطورة مادة الحديد في صناعة

الحضارات وبناء الدول ، وفي حسم انتصارات الجيوش .

إن هذه المنهجية القرآنية هي التي سرت عليها في كتابتي التاريخية ولذلك اهتممت بصفات القادة ، وعقائدهم والمنهج الذي ساروا عليه وبعدهم وقربهم من شرع الله تعالى ، فهذه المنهجية تخالف المناهج الغربية في دراسة التاريخ ، لأنها تنبثق من تصور للحياة والكون والإنسان وحركة التاريخ من خلال منهج الخلاق العليم المتمثل في كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم ﷺ ، وهذا المنهج في كتابه الذي يحرر المتأثرين بالمناهج الغربية في كتابة تاريخنا من تلك الأغلال والقيود الفكرية التي فرضها المستعمر والذي حاول ولا يزال جاهدًا أن يبعد المسلمين عن دينهم وعقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم .

هذا وقد جاءتنى بعض الانتقادات العلمية من بعض الباحثين ، وقد استفدت منها، فلهم مني الشكر والدعاء في ظهر الغيب بالتوفيق والسداد ، وأن يوفقنا جميعًا لخدمة ديننا وعقيدتنا وتاريخ أمتنا المجيد .

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى تمهيدين وفصلين ، والخلاصة .

الفصل الأول : قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها .

ويشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول : عثمان مؤسس الدولة العثمانية .

المبحث الثاني : السلطان أرخان بن عثمان .

المبحث الثالث : السلطان مراد .

المبحث الرابع : السلطان بايزيد الأول .

المبحث الخامس : السلطان محمد الأول .

المبحث السادس : مراد الثاني .

الفصل الثاني : محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

ويشتمل على سبعة مباحث :

المبحث الأول : السلطان محمد الفاتح .

المبحث الثاني : الفاتح المعنوي للقسطنطينية الشيخ شمس الدين آق محمد بن حمزة .

المبحث الثالث : أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي .

المبحث الرابع : أسباب فتح القسطنطينية .

المبحث الخامس : أهم صفات محمد الفاتح .

المبحث السادس : بعض من أعماله الحضارية .

المبحث السابع : وصية السلطان محمد الفاتح لابنه ، ثم الخلاصة .

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب ، وأهدي للقارئ الكريم هذه الأبيات المعبرة :

ملكنا هذه الدنيا قرونًا ... وأخضعها جدود خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء ... فما نسي الزمان ولا نسينا

وما فتئ الزمان يدور حتى ... مضى بالركب قوم آخرونا

وآلمني وآلم كل حر ... سؤال الدهر أين المسلمون ؟

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين » .

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي

الفصل الأول

تمهيد : قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان ، وتزاول حرفة الرعي ، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى ، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام ٦١٧هـ الموافق ١٢٢٠م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط [(١)] ثم بعد وفاته في عام ٦٢٨هـ الموافق ١٢٣٠م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل ، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس [(٢)] وحين كان أرطغرل والد عثمان فارًا بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة ، من ويلات الهجمة المغولية ، فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء ، فلما دنا منها وجد قتالاً حاميًا بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي ، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه في الدين والعقيدة ، فكان ذلك التقدم سببًا في نصر المسلمين على النصارى [(٣)] وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته ، فأقطعهم أرضًا في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم [(٤)] ، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم ، وحقق السلاجقة بذلك حليفًا قويًا ومشاركًا في الجهاد ضد الروم ، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين ، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفي سنة ٦٩٩هـ ـ ١٢٩٩م [(٥)] خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم [(٦)] .

---

(١) أخلاط : مدينة في شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وآن في أرمينيا .

(٢) انظر : قيام الدولة العثمانية ص٢٦ .

(٣) انظر : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، زياد أبو غنيمة ص٣٦ .

(٤) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور د . عبد العزيز العمري ص٣٥٣ .

(٥) تاريخ سلاطين آل عثمان تحقيق بسام الجابي للقرماني ص ١٠ .

(٦) انظر : تاريخ الدولة العلية ص١١٥ محمد فريد .

المبحث الأول

عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ولد لأرطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية [(١)] وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وكانت الأحداث عظيمة ، والمصائب جسيمة ، يقول ابن كثير : « ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش ، وقني الوسخ ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة ، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم[(٢)] .

لقد كان الخطب عظيمًا والحدث جلل ، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها ولذلك سلط عليها المغول ، فهتكوا الأعراض ، وسفكوا الدماء ، وقتلوا الأنفس ، ونهبوا الأموال ، وخربوا الديار ، في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية ، وهنا معنى لطيف ألا وهو: بداية الأمة في التمكين هي أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك هي بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين ، إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ

---

(١) انظر : السلطان محمد الفاتح ص١٢ عبد السلام عبد العزيز ص١٢ .

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١٩٢ ، ١٩٣) .

أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

ولاشك أن الله تعالى قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها ، بل في طرفة عين قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [النحل : ٤٠] .

فلا يستعجل أهل الحق موعد الله عز وجل لهم بالنصر والتمكين ، فلابد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية ، ولابد من الصبر على دين الله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [محمد : ٤] . والله إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه وأتى به شيئًا فشيئًا بالتدرج لا دفعة واحدة .

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذي ولد في عام سقوط الخلافة العباسية في بغداد .

أولاً : أهم الصفات القيادية في عثمان الأول :

عندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة في شخصيته كقائد عسكري ، ورجل سياسي ، ومن أهم هذه الصفات :

١ ـ الشجاعة : عندما تنادى أمراء النصارى في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون في عام ٧٠٠هـ / ١٣٠١م لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية واستجابت النصارى لهذا النداء ، وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين(١) .

٢ ـ الحكمة : بعد ما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان

---

(١) انظر : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ص١٩٧ .

علاء الدين ضد النصارى ، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة ، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم . وسمح له سك العملة باسمه ، مع الدعاء له في خطبة لجمعة في المناطق التي تحته (١) .

٣ ـ الإخلاص : عندما لمس سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سدًا منيعًا أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين (٢) .

٤ ـ الصبر : وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان، ففتح في سنة ٧٠٧هـ حصن كته ، وحصن لفكه ، وحصن آق حصار ، وحصن قوج حصار . وفي سنة ٧١٢هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا ، وحصن تكرر بيكارى وغيرها وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة في عام٧١٧هـ/ ١٣١٧م ، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات ، ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة ؛ بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته ، حيث حدث بينه وبين قائد حاميتها إقرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان . قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

٥ ـ الجاذبية الإيمانية : وتظهر هذه الصفة عندما احتك به إقرينوس قائد بروسة واعتنق الإسلام أعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد ، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم (٣) ؛ بل إن كثيرًا من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غزياروم) أي غزاة الروم ،

---

(١) انظر : قيام الدولة العثمانية ص٢٥ .
(٢) انظر : قيام الدولة العثمانية ص٢٦ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص٢٨ .

وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي ، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات في جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للإسلام والتزامها بكل ما جاء به الإسلام من نظام ، وجماعة (الإخيان) (أي الإخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة ، وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذين سخروا أموالهم للخدمات الإسلامية مثل : إقامة المساجد والتكايا والخانات والفنادق، وكانت لهم في الدولة مكانة عالية ، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا في نشر الثقافة الإسلامية وحببوا الناس في التمسك بالدين ، وجماعة (حاجيات روم) أي حجاج أرض الروم ، وكانت جماعة على فقه بالإسلام ، ومعرفة دقيقة لتشريعاته ، وكان هدفها معاونة المسلمين عمومًا والمجاهدين خصوصًا وغير ذلك من الجماعات (١) .

٦ ـ عدله : تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي ، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان : كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك ؟ فأجابه عثمان : بل كيف لا أحكم لصالحك ، والله الذي نعبده ، يقول لنا : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء : ٥٨] وكان هذا العدل الكريم سببًا في اهتداء الرجل وقومه إلى الإسلام(٢) .

إن عثمان الأول استخدم العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها ، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر ، أو الطغيان ، أو البطش ، وإنما عاملهم بهذا الدستور الرباني : ﴿ **أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ**

---

(١) انظر : التراجع الحضاري في العالم الإسلامي د . علي عبد الحليم ص٣٣١ ، ٣٣٢ .

(٢) انظر : جوانب مضيئة ص٣٢ .

عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٧ ، ٨٨] . والعمل بهذا الدستور الرباني يدل على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة .

٧ ـ الوفاء : كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود ، فعندما اشترط أمير قلعة أولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني ، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده (١) . قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

٨ ـ التجرد لله في فتوحاته : فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك ، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه ، ولذلك وصفه المؤرخ أحمد رفيق في موسوعته (التاريخ العام الكبير) بقوله : (كان عثمان متدينًا للغاية ، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس ، وكان مالكًا لفكر سياسي واسع متين ، ولم يؤسس عثمان دولته حبًا في السلطة وإنما حبا فى نشر الإسلام) (٢) .

ويقول مصر أوغلو : « لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيمانًا عميقًا بأن وظيفته الوحيدة فى الحياة هى: الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وقد كان مندفعًا بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف » (٣).

هذه بعد صفات عثمان الأول التى كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر ، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان وحبه العميق للجهاد في سبيل الله والدعوة إليه ، ولذلك كان عثمان في فتوحاته يطلب من أمراء الروم في منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور: هي الدخول في الإسلام ، أو دفع الجزية ، أو الحرب ، وبذلك أسلم بعضهم ، وانضم إليه البعض

(١) المصدر السابق نفسه ، ص٣٣ .
(٢) انظر : جوانب مضيئة ص٣٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص٣٣ .

الآخر وقبلوا دفع الجزية . أما ما عداهم فقد شن عليهم جهادًا لا هوادة فيه فانتصر عليهم ، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته .

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر ، ولذلك فلم تطغ قوته على عدالته ، ولا سلطانه على رحمته ، ولا غناه على تواضعه ، وأصبح مستحقًا لتأييد الله وعونه ، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان ، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف فى آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار ، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية، لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله ، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف ، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان ، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى ، وكان حريصًا على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها ، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة ، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان ، مثلما كان معاديًا لأهل الكفران .

ثانيًا : الدستور الذي سار عليه العثمانيون :

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية : جهادًا ودعوة في سبيل الله وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإدارى والتنفيذ الشرعي في الإمارة ، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد يقول عثمان في وصيته : (يا بني : إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً .

يا بني : أحط من أطاعك بالإعزاز . وأنعم على الجنود ، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك ، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة .

يا بني : إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين ، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق ، فتحدث مرضاة الله جل جلاله .

يا بني : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت ، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل) [١]

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية : (اعلم يا بني ، أن نشر الإسلام ، وهداية الناس إليه ، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها) [٢] .

وفي كتاب مأساة بني عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول : (يا بني ، إنني أنتقل إلى جوار ربي ، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية ، مجاهدًا في سبيل الله ، لنشر دين الإسلام .

يا بني ، أوصيك بعلماء الأمة ، أدم رعايتهم ، وأكثر من تبجيلهم ، وأنزل على مشورتهم ، فإنهم لا يأمرون إلا بخير .

يا بني ، إياك أن تفعل أمرًا لا يرضي الله عز وجل ، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة ، فإنهم سيدلونك على الخير .

واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله ، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا) [٣] .

وفي التاريخ العثماني المصور ، عبارات أخرى من وصية عثمان تقول : (وصيتي لأبنائي وأصدقائي ، أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله ، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد . اخدموا الإسلام دائمًا ؛ لأن الله عز وجل قد وظف عبدًا ضعيفًا مثلي لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، د . محمد حرب ، ص١٦ .

(٢) انظر : جوانب مضيئة ، ص ٢١ .

(٣) انظر : جوانب مضيئة ، ص٣ .

التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

يابني : ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أجلي بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة وأستودعك المولى عز وجل . اعدل في جميع شؤونك . .) [١] .

لقد كانت هذه الوصية منهجًا سار عليه العثمانيون ، فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش ، وبالمؤسسات العسكرية ، وبالعلماء واحترامهم ، وبالجهاد الذي أوصل فتوحًا إلى أقصى مكان وصلت إليه رايته جيش مسلم وبالإمارة وبالحضارة) [٢] .

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية:

١ ـ (يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين):

إنها دعوة إلى الالتزام بشرع الله في كل صغيرة وكبيرة ، وبحيث يكون حكم الله وأمره مهيمنًا على كل شيء قال تعالى : ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٤٠] .

يعني : (ما الحكم الحق في الربوبية والعقائد والمعاملات إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ، ولا بعقله واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه ، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة) [٣] لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى قال سبحانه : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ**

(١) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص ٣٣ .

(٢) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٢٦ .

(٣) تفسير المنار (١٢/ ٣٠٩).

بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ [النساء : ١٠٥] فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله[١].

إن عثمان يوصي ابنه كحاكم من بعده لدولة إسلامية أن يتقيد بحكم الله في أعماله، لأنه يعلم أن إقامة حكم الله من خلال الحاكم المسلم عهد وميثاق ذكره الله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾ [المائدة : ٧] فهذا تذكير من الله تعالى لعباده المؤمنين بنعمته عليهم في الشرع الذي شرعه لهم في هذا الدين العظيم ، المرسل به الرسول الكريم، وأخذ للعهد والميثاق عليهم في متابعته ونصرته وإبلاغه والقيام به ، وهذا مقتضى البيعة التي كان الصحابة يبايعون عليها رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، كما أن الإخلال بعهد الحاكمية جاهلية قال تعالى : ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ [المائدة: ٥٠] ففي الآية الكريمة إنكار وتوبيخ وتعجب من حال من يتولى عن حكم الله وهو يبغي حكم غيره ، والآية تعبير لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحي [٢] .

إن تحقيق الحاكمية ، تمكين للعبودية ، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان ، قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] أي ليطيعوه وحده لا شريك له [٣] . وإن المفهوم الواسع الرحيب للعبادة ليشمل علائق وأعمالاً كثيرة ، منها ما يمكن أن يقيمه الأفراد ومنها ما لا يمكن تحقيقه على الوجه الأكمل إلا في ظل دولة الإسلام ، وهذه المعاني الرفيعة كانت واضحة في ذهن المؤسس الأول للدولة العثمانية ، ولذلك وصى الأمير أورخان بهذه العبارة المنهجية المسددة (يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين) وهذا التوجيه من عثمان لابنه كفرد وكرئيس لدولة وفي طياته معنى كون العبادة لها أصلان:

(١) انظر : الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٣٣) .
(٢) تفسير أبي السعود (٢/ ٧١) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٩) .

أحدهما : أن لا يعبد إلا الله ، **والثاني** : أن يعبد بما أمر وشرع [(١)] . فإنه مما لا شك فيه كانت الدولة العثمانية حريصة على حماية هذين الأصلين بمحاربة الشرك في داخلها وعملت على تقليص نفوذه خارجها وكانت حريصة على حماية الشرع ضد من يعاود الاعتداء عليه بابتداع أو تحريف أو تغيير أو تبديل ، وكل ذلك من حرص أميرها والعلماء الذين من حوله على تحقيق العبودية لله على الوجه المرضي ، وعلى حماية الدين من دخائل وانتحالات المضلين ، وبهذا تكون دولة بني عثمان أخذت الصبغة الشرعية . (لقد كانت نشأتها إسلامية ، خالصة ، مشبوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية) [(٢)] .

٢ ـ إذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً:

إن الله تعالى قد شرع نظام الشورى لِحِكَمٍ بالغة ، ومقاصد عظيمة ، ولما فيها من المصالح الكبيرة ، والفوائد الجليلة التي تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة ، ولذلك أمر عثمان الأول ابنه أن يجعل من العلماء مجلس شورى له في معضلات الأمور وفي هذا الإرشاد امتثال لأمر الله واقتداء برسول الله ﷺ.

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله : (وبهذا النص الجازم ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم ـ حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذي يتولاه ، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه) [(٣)] .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٧٣) .

(٢) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذلي ، ص٥٤ .

(٣) في ظلال القرآن الكريم (٤/ ٥٠١) .

يُنفِقُونَ﴾ [الشورى : ٣٨] .

يقول الأستاذ عبد القادر عودة ـ رحمه الله: (الشورى من دعائم الإيمان وصفة من الصفات المميزة للمسلمين ، سوى الله بينها وبين الصلاة والإنفاق في قوله : **﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾** فجعل للاستجابة لله نتائج بين لنا أبرزها ، وأظهرها ، وهي إقامة الصلاة والشورى والإنفاق ، وإذا كانت الشورى من الإيمان فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى ، ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة ، وما دامت الشورى صفة لازمة للمسلم لا يكمل إيمانه إلا بتوفرها ، فهي إذن فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين ، فعلى الحاكم أن يستشير في كل أمور الحكم والإدارة والسياسة ، والتشريع وكل ما يتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة ، وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه في هذه المسائل كلها، سواء استشارهم الحاكم أو لم يستشرهم [١] .

والأحاديث القولية والسنة الفعلية الدالة على وجوب الشورى كثيرة ونكتفي بما ذكرنا خوفًا من الإطالة .

وفي رواية أن عثمان أمر ابنه بأن ينزل على رأي العلماء في قوله : (وأنزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير . .) [٢] وكأن عثمان ـ رحمه الله ـ يرى أن الشورى ملزمة للحاكم ، وقد ذهب إلى هذا الرأي مجموعة من العلماء المعاصرين منهم العلامة أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ : (وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحاكمها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم ، وإمضاء نظام الحكم بالشورى . يقول تعالى : **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾** [الشورى:٣٨] ، **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾** [آل عمران : ١٥٩] [٣] .

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية ، ص١٩٣ .
(٢) انظر : جوانب مضيئة ، ص٢١ .
(٣) الخلافة والملك ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

(إن قاعدة : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ تتطلب بذاتها خمسة أمور : خامسها التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثريتهم ، أما أن يستمع ولي الأمر إلى آراء جميع أهل الشورى ثم يختار هو بنفسه بحرية تامة ، فإن الشورى في هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها ، فالله لم يقل : (تؤخذ آراؤهم ومشورتهم في أمرهم) وإنما قال : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يعني أن تسير الأمور بتشاور فيما بينهم ، وتطبيق هذا القول الإلهي لا يتم بأخذ الرأي فقط، وإنما من الضروري لتنفيذه وتطبيقه أن تجري الأمور وفق ما يتقرر بالإجماع أو الأكثرية . .) (١) .

وهكذا نرى الأمير عثمان يسبق كثيرا من العلماء والمفكرين المعاصرين في ذهابه إلى أن الشورى ملزمة ويأمر بأنه بالنزول عند رأي العلماء ولكونهم لا يأمرون إلا بخير .

لقد ساهمت الشورى في بناء الدولة العثمانية وتماسك رعاياها وعززت السلطان السياسي والجهادي والدعوى للدولة ، وكانت الآراء تتقلب وفقًا لجدارتها ، وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودستور الدولة ، لقد كان الحكام العثمانيون يريدون لحكمهم أن يستمر ولنظام دولتهم أن يستقر ولذلك حرصوا على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلادهم وجعلوا من الشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية .

ولقد تطورت الشورى في الدولة العثمانية ؛ بل أصبح لكل إقليم حاكم يطلق عليه باشا وله مجلس الديوان يتشاورون في شئون الحكم والرعية ، ولقد شكلت مجالس وعين نواب وممثلون لكل جماعة وأتيحت الفرصة للاختيار وتتطور الأمر حتى وصل في عهد السلطان محمد الفاتح إلى تشكيل مجلس استشاري لأمور الدولة .

إن أشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها كانت في زمن الدولة العثمانية عرضة للاجتهاد والبحث والاختيار ، أما أصل الشورى في إدارة شئون الدولة فكان بالنسبة لهم من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو

---

(١) الحكومة الإسلامية ، ص٩٤ .

إهماله وإن كان تاريخ الدولة العثمانية لا يخلو من ظهور بعض السلاطين المتسلطين.

٣ - يا بني أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم:

كان عثمان على صلة متينة مع كبار العلماء والفقهاء وكبار الصالحين في عهده وكثيرًا ما يجلس الساعات الطوال بين أيديهم ويتلقى مواعظهم ويستفيد من علمهم ويشاورهم في أمور الدولة وكان يتردد على المولى الشيخ (إده بالي) القرماني المولد وقد زوجه ابنته بسبب رؤيا: (كان في أحد الأيام يبيت عنده، فرأى في المنام قمرًا خرج من حضن الشيخ ودخل حضنه، وعند ذلك نبتت شجرة عظيمة سدت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال عظيمة تتفجر منها الأنهار، والناس ينتفعون بتلك الأشجار لأنفسهم ودوابهم وبساتينهم، فقص هذه الرؤيا على الشيخ فقال: لك البشرى، بما نلت مرتبة السلطنة، وينتفع بك وبأولادك المسلمون، وإني زوجت لك ابنتي هذه)... [(١)].

لقد حاول بعض الكتاب أن يجعل من تلك الرؤيا أسطورة لا حقيقة لها مع أن هذه الرؤيا ذكرت في كتاب مهم اسمه الشقائق النعمانية في تاريخ الدولة العثمانية، وهذا الكتاب أفاد وأجاد في ذكر علماء وفقهاء الدولة لفترات زمنية ممتدة.

إن هذه الرؤيا لا تخالف العقل ولا النقل؛ لأن عثمان الأول رحمه الله كان رجلاً تقيًا ورعًا ومن ثمار التقوى الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم، قال تعالى: **﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** [يونس: ٦٢-٦٤].

والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين، في غير مكان من كتابه وعن النبي ﷺ: « **الرؤيا الصالحة من الله** ... » [(٢)] وعنه عليه الصلاة والسلام: « **لم**

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تأليف طاش كبرى زاده، ص٧ نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية، د/ علي حسون، ص ٢٥.

(٢) البخاري، كتاب الرؤيا، باب رؤيا الصالحين (٨/٨٨) رقم ٦٩٨٦.

يبق من النبوة إلا **المبشرات** » قالوا: وما المبشرات ؟ قال: « **الرؤيا الصالحة**» [١] وعن أبي ذر قال : قلت لرسول الله ﷺ : الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن** » [٢] .

إن عثمان الأول ـ رحمه الله ـ وضع الله له محبة في قلوب المسلمين لجهاده وتقواه وصلاحه .

إن وصية عثمان لابنه باحترام العلماء أصبحت منهجًا سار عليه حكام الدولة العثمانية ، وهذا يدل على التزام العثمانيين بشرع الله تعالى ؛ لأن الشريعة أعطت اعتبارًا للعلماء وبنته على أمرين :

ـ أن طاعتهم طاعة لله ـ عز وجل ولرسوله ﷺ ـ فالتزام أمرهم واجب.

ـ أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها ؛ بل هي تبعٌ لطاعة الله ورسوله ﷺ .

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة كثيرة منها :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء :٥٩] .

وقد اختلف المفسرون في ﴿ **أُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ على أقوال فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة.

وقيل: هم أهل العلم.

قال ابن عباس ﷺ : « يعني أهل الفقه والدين ، وأهل طاعة الله الذين يعلمون الناس معاني دينهم ، ويأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، فأوجب الله سبحانه طاعتهم على عباده»[٣] .

---

(١) البخاري ، كتاب الرؤيا ، باب المبشرات (٨/ ٨٩) رقم ٦٩٩٠ .

(٢) مسلم : كتاب الرؤيا ، باب (٤/ ٢٠٣٤) .

(٣) تفسير الطبري (٥/ ١٤٩) .

والتحقيق أن الأمـراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعـتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم ، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الـرسول ، فطاعة الأمراء تبع لطـاعة العلماء ، فإن الطاعـة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم ، ولما كان قيام الإسلام بطائفتين ، العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تبعًا ، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين ، وفساده بفسادهما[1] .

والدليل الثاني : أن الله ـ سبحانه ـ أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عما أشكل: قال تعالى : **﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾** [الأنبياء : ٧].

(وعموم هذه الآية ، فـيها مدح أهل العلم ، وأن أعلى أنواعه الـعلم بالكتاب المنزل ، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث في ضمنه تعديل لأهل الـعلم وتزكـيـة لهم حـيث أمـر بسـؤالهم ،وأن بـذلك يخـرج الجاهـل من التبعة . .)[2] .

إن الآيات والأحاديث التي تبين دور العلماء كثيرة ونكتفي بما ذكرنا.

لقد كان العلماء في مسير الدولة العـثمانية مرجع للسلاطين عند الفتن والملاحم والمحن ، وكانت لهم مقدرة عظيمة على حشد الناس تحت لواء الجهاد في سبيل الله تعالى ، وإقامـة شرعه على الرعية وكـانوا لا يسمحون للسلطان أن يـتجاوز أحكام الشرع وإلا ربما هيجوا عليه الناس وعزلوه ، وكانـت أحكام العلماء والفقهاء تستنبط من:

١ ـ القرآن الكريم :

قـال تعـالى : **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾** [النساء: ١٠٥].

فهو المصدر الأول الذي يشتمل على جميع الأحـكام الشرعية التي تتعلق بشئون

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٠) بتحقيق عبد الرؤوف سعد .

(٢) تفسير السعدي (٤/ ٢٠٦).

الحياة البشرية ، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكامًا قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة ، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم .

٢ ـ السنة المطهرة :

هي المصدر الثاني الذي يستمد منه العلماء الأحكام ومن خلالها يعرفون الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن ممثلة في قيادة الرسول ﷺ للأمة ومن خلال السنة يمكن التعرف على نوعية المجتمع المثالي الذي ينشده الإسلام.

٣ ـ إجماع الأمة :

وخاصة الصحابة ، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين قال تعالي : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥].

٤ ـ مذهب العلماء والمجتهدين :

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء : ٨٣].

والآية دليل على الأخذ بالاجتهاد إذا عُدم النص والإجماع [1] ، ولأن العلماء في أمة محمد (كالأنبياء في بني إسرائيل ، فهم المؤتمون على نقل العلم ، والمفوضون في استنباط الأحكام المتجددة في عمومات الشريعة ، لا لعصمة اختصوا بها ـ فليس في الإسلام كهنوت ـ ولكن لأهليتهم في أن يُسموا ـ « أهل الذكر» والله تعالى يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٣] .

لقد كان علماء الدولة العثمانية على فهم عميق لروح الشريعة وقواعدها ولهم المقدرة على معالجة ما يستجد من قضايا في ضوء هذا الفهم ، وكانت لهم القدرة

(١) انظر : تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٢) .

على فهم ضبط المناط في الأحكام وقياس الفروع على الأصول فيها.

ولقد كان المذهب الحنفي له القدح المعلى عند علماء الدولة وإن كانوا لا يستغنون عن بقية المذاهب السنية التي كانت لها احترامها عند السلاطين العثمانيين .

لقد حرص علماء الدولة العثمانية على أن يكون نظامها السياسي على عقيدة التوحيد ، وتطبيق شريعة الله ، وتقوم على الشورى ، وأن يقوم نظامها الاقتصادي على التعامل بالذهب والفضة ، وعدم التعامل بالربا ، وعدم الاستغلال والاحتكار، وعدم الاتجار بما حرم الله ، وأن يقوم نظامها السلوكي والأخلاقي والاجتماعي على أساس عقيدة الإسلام ، وأن يقوم نظامها التعليمي والإعلامي على قاعدة من العلوم الشرعية ، وأن تقوم علاقتها الدولية على أساس عقيدة الإسلام التي وضعها الله سبحانه وتعالى - حيث قال : **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [الممتحنة : ٨ ، ٩] .

لقد كان العلماء والفقهاء في الدولة العثمانية يشرفون على تطبيق شرع الله ، وإقامة الحدود ، وتحريم ما حرم الله ، ولا تستحل ما حرم الله [١] .

لقد كان معظم سلاطين الدولة يحترمون العلماء ويجلونهم.

٤ - (اعلم يا بني ، أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها) [٢] .

لقد فهم عثمان الأول - رحمه الله - أن دين الإسلام ، دين دعوة مستمرة ، لا تتوقف حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض وأن من أهداف الدولة الإسلامية دفع عجلة الدعوة إلى الأمام ليصل نور الإسلام إلى كل إنسان . إن

---

(١) انظر : الدولة العثمانية ، د . جمال عبد الهادي ، ص ٤ .

(٢) انظر : جوانب مضيئة ،ص٢١ .

الدولة العثمانية كانت ترى من مسئولياتها القيام بوظيفة الدعوة ونشرها في أرجاء الأرض وربط السياسة الخارجية على الأسس الدعوية العقدية قبل بنائها على الأسس المصلحية النفعية ، وذلك كما كان يفعل رسول الله ﷺ ، كان يقوم بتبليغ الدعوة إلى الآفاق امتثالاً لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] .

وقد امتثل عليه الصلاة والسلام للأمر وأرسل إلى ملوك الأرض ، فكتب إلى ملوك الروم ، فقيل له : إنهم لا يقرؤون كتابًا إلا إذا كان مختومًا ، فاتخذ خاتمًا من فضة وختم به الكتب إلى الملوك ، وبعث كتبًا ورسلاً إلى ملوك فارس والروم ، والحبشة ومصر والبلقاء واليمامة في يوم واحد ، ثم بعث إلى حكام عمان والبحرين واليمن وغيرهم [١] .

ولذلك اقتدى عثمان ـ رحمه الله ـ بالنبي ﷺ في دعوته وسار أبناؤه من بعده على هذا المنهج وظهرت في الدولة جماعة الدعوة وكان الحكام والسلاطين يقفون معها ويدعمونها ماديًا ومعنويًا ، ولقد سلك العثمانيون دولة وشعبًا سبلاً متعددة من أجل إدخال النصارى في الإسلام ومن هذه الطرق :

ـ الاحتفال بمن يعلن اعتناقه للإسلام وإمداده بكل ما يعينه على الحياة والابتهال به في المساجد.

ـ حرص العثمانيون على التمسك بالدين ، والتواضع في أداء الشعائر مما جعل بعض المسيحيين يدخلون في الإسلام .

ـ معاملة الرقيق من المسيحيين باللين حيث كانوا يعتقونهم إذا ثبت إخلاصهم حتى ولو ظلوا على دينهم ويتولون رعايتهم وبخاصة كبار السن منهم بعد العتق فضلاً عن حسن معاملة من يسلم منهم أو يظل على دينه مما كان دافعًا لكثير منهم على اعتناق الإسلام [٢] .

---

(١) انظر : زاد المعاد (١/ ١١٩ـ١٢٤) .

(٢) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، د . زكريا بيومي ، ص٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

- أقبل كثير من العثمانيين على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن فيها مما حدا ببعضهن إلى اتباع أزواجهن .

- قام من دخل في الإسلام من النصارى بدعوة أقاربهم وذويهم لما رأوا من سماحة الإسلام وانسجامه مع الفطرة ، ومخاطبته للعقل ، وإحيائه للقلب .

- قامت الدولة العثمانية بنقل قبائل إسلامية تابعة لها إلى قرى مسيحية ونقلت أعدادًا من النصارى إلى تجمعات إسلامية مما ساعد على انتشار الإسلام تدريجيًا .

- قام السلطان مراد باتباع سياسة الإفراج عن الأسرى إذا هم اعتنقوا الإسلام وأسهم ذلك الأسلوب في زيادة عدد المسلمين .

- ومما ساعد على انتشار الإسلام في البلقان تعسف الإقطاعيين المحليين في فرض الضرائب الباهظة وأن كبار رجال الدين من الإقطاعيين قد باعوا أسرار الكنيسة ووظائفها من جهة وسعوا في توثيق علاقاتهم بالنظام العثماني ؛ بل بعضهم دخل في الإسلام .

- توسع سلاطين العثمانيين في المنح والعطايا والتقدير لزعماء النصارى الذين أقبلوا على الإسلام وأظهر كثيرون منهم الإخلاص للدولة العثمانية [1] .

لقد اهتم العثمانيون بأمر الدعوة إلى الله على المستوى الخارجي، وإدخال الناس في دين الإسلام ولم يتركوا أمر الإصلاح الداخلي في الدولة وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لقد بين عثمان الأول - رحمه الله - أن حماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنق الحاكم المسلم وهذه الأمور تدخل تحت عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتنفيذ الحدود ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق وتعليم الأمة أمر دينها، ويكون ذلك بإشراف الحاكم المسلم ، فيترتب على تلك الأمور فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد ، والحكام والمحكومين ومن أهم هذه الفوائد :

(١) انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين.

ـ إقامة الملّة والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هي العليا .

قال تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج : ٤٠] .

إن الإنسان لابد له من أمر ونهي ودعوة ، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر [1] .

ـ رفع العقوبات العامة : قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقال أيضًا في الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد : ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] فالكفر والمعاصي بأنواعها سبب للمصائب والمهالك قال تعالى : ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود : ١١٦] وقال : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] . « وهذه إشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم ، فإن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير » [2] .

ـ استنزال الرحمة من الله تعالى ؛ لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم :٧] والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع من العبودية لله .

ـ تحقيق وصف الخيرية في هذه الأمة :

قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ـ التجافي عن صفات المنافقين :

---

(١) انظر : الأمر بالمعروف النهي عن المنكر ، خالد السبت ، ص٧٢ .

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٣).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة :٧١] .

٥ ـ (يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز ، وأنعم على الجنود) [١]:

إن أمة الإسلام تحتاج لكي تقوم بمهمتها في هداية الناس للخير إلى أن تكون صالحة في نفسها ، مصلحة لغيرها ، فهي الشهيدة على الأمم لأنها أمة الوسط.

قال سبحانه : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وهناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية ، والحاكم والمحكوم ، ومن وصية عثمان ـ رحمه الله ـ لابنه يبين له حق الرعية على الحاكم ولقد حرص العثمانيون كحكام علي تنفيذ حقوق الرعية ومن أهم هذه الحقوق التي قاموا بها :

١ ـ العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية .

٢ ـ بذل الأسباب المؤدية إلى وحدة الأمة .

٣ ـ العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج .

٤ ـ أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين .

٥ ـ إعداد الأمة إعدادًا جهاديًا .

٦ ـ حفظ ما وضعت الشريعة لأجله .

٧ ـ تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء وصرفها في مصارفها الشرعية .

٨ ـ تحري الأمانة في اختيار أرباب المناصب .

٩ ـ إعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٦ .

١٠ ـ الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية في كل النواحي الإدارية التي تتعلق بما يصلح أحوالهم [١] .

ومن واجبات الرعية تجاه الحكام :

١ ـ الطاعة :

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء : ٥٩] .

وكان المجتمع العثماني شديد السمع والطاعة لحكامه ما داموا ملتزمين بالشريعة؛ لأنهم كانوا على علم بأن طاعة الحكام مقيدة دائمًا بطاعة الله ورسوله ، كما قالﷺ: « **لا طاعة في المعصية ، إنما الطاعة في المعروف** » [٢] .

٢ ـ النصرة :

كان المجتمع العثماني دائمًا يلتف حول حكامه الشرعيين ويلبي دعوة الجهاد ويبذل الغالي والرخيص ويرى ذلك عبادة لله تعالى قال تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة : ٢] .

وكان من مفاهيم المجتمع العثماني السائدة عندهم ؛ من نصرة الحاكم ألا يهان، ومن معاضدته أن يحترم ، وأن يكرم ، فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله ، تستوجب تبجيله ، وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكرامًا لشرع الله سبحانه الذي ينافح ويدافع عنه . يقول رسول الله ﷺ : « **إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط** » [٣] .

---

(١) انظر : الحاكم والمحكوم في خطاب الوحي (٢/ ٣١٥ ـ ٣٢٣) .
(٢) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرق أمر المسلمين (٣/ ١٤٨٠) رقم ١٨٥٢ .
(٣) أبو داود ، كتاب الأدب ، باب تنزيل الناس منازلهم رقم الحديث ٤٨٢٢ .

٣ ـ النصح :

إن المجتمع العثماني كان يناصح ولاة أمره ويرى ذلك من صميم الدين لقول رسول الله ﷺ : « **الدين النصيحة** » ـ ثلاثًا ـ قال الصحابة : لمن يا رسول الله ؟ قال : « **لله ـ عز وجل ـ ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » (١) .

٤ ـ التقويم :

لقد استقر في مفهوم المجتمع العثماني أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن استقامة ولاتها ، ولذلك نجد في التاريخ العثماني صورًا مشرفة في تقويم الحكام وإرشادهم ونصحهم ، فهذا المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي المتوفى سنة٩٣٢هـ ، فقد كان عالمًا عاملاً يمضي وقته في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى ، محافظًا على الصلوات الخمس مع الجماعة ، وكان كريم النفس ، طيب الأخلاق ، عظيم المهابة ، صداعًا بالحق ، عفيف اللسان لا يذكر أحدًا بسوء ، ولعلاء الدين احتساب عظيم مع السلطان سليم خان المتوفى عام ٩٢٦هـ ومن ذلك : أن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين من موظفيه ، فلما سمع المولى علاء الدين بالأمر ذهب إلى الديوان ، ولم تكن عادته الحضور إلى السلطان إلا لأمر عظيم ، فلم يشعر الوزراء وأهل الديوان إلا بدخول الشيخ المفتي عليهم ، فوثبوا يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له : أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الديوان العالي ؟ قال : أريد أن أدخل على السلطان ولي معه كلام ، فاستأذنوا له على السلطان ، فأذن له وحده فدخل عليه وجلس ، وقال : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعًا ، فغضب السلطان وكان صاحب حدة ، وقال له : لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك ، فقال الشيخ : بل أعترض لأمر آخرتك ، وإنه من وظيفتي ، ومهما عشت فإنك ميت ومعروض على الله ، وواقف بين يديه للحساب ، فإن عفوت فلك النجاة ، وإلا فإن أمامك جهنم وعليك

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، (١/ ٧٤) رقم ٥٥ .

عقاب عظيم ، ولا يعصمك ملكك ولا ينجيك سلطانك ، فما كان من السلطان إلا الإذعان والتسليم أمام نداء الحق من هذا المحتسب ، وخضع للحق ، وعفا عنهم جميعًا ، ثم إن المحتسب لم يكتف بذلك ؛ بل طالبه أن يعيد الجميع إلى وظائفهم ففعل . رحم الله المولى علاء الدين الذي كان عظيمًا باحتسابه، جريئًا في الحق لا يخشى فيه لومة لائم، ولقد تأثر السلطان سليم بهذا العالم وأرسل إليه بعد ذلك وطلب منه أن يكون قاضي العسكر وقال له : جمعت لك بين الطرفين لأني تحققت أنك تتكلم بالحق ، فكتب إليه : وصل إلي كتابك سلمك الله تعالى وأبقاك وأمرتني بالقضاء وإني أمتثل أمرك إلا أن لي مع الله تعالى عهدًا أن لا تصدر عني لفظة حكمت فأحبه السلطان محبة عظيمة (١) .

وهكذا سار العثمانيون على المنهج الذي وضعه لهم المؤسس الأول .

٦ ـ (ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك) (٢) :

وهذه المعاني يعيشها من فهم القرآن الكريم وتأثر به ، وتأمل في سير الأنبياء والمرسلين والمصلحين ؛ لأنه يعلم أن التوفيق من الله تعالى وليس بالجند ولا بالمال وهكذا كان موقف يوسف عليه السلام قال تعالى : ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠١] . وهكذا يناجي يوسف عليه السلام ربه ؛ فيقول أصبحت ممكنًا في الأرض تشد إليَّ الرحال ، وتنصاع لكلمتي الرجال ، ورزقتني الفهم وصواب تأويل الرؤى ، وتفسير الأحاديث ويرجع الفضل إلى صاحب المن والفضل، يقول ابن القيم : « جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه ، والبراءة من موالاة غيره سبحانه ، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد ، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد ، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء » (٣) .

---

(١) انظر : شذرات الذهب (٨/ ١٨٥) .

(٢) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٦ .

(٣) الفوائد لابن القيم ، ص٢١ .

وهذا ذو القرنين عندما تم بناء سده العظيم وكان يملك الجنود والمال ويتحكم في الشعوب بالعدل قال : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ [الكهف : ٩٨] . إنها عبارة جميلة مباركة تشير إلى عدة معانٍ :

١ ـ قال سيد قطب : (ونظر ذو القرنين إلى العمل العظيم الذى قام به ؛ فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ، ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه . . .) (١) .

إن من أعظم صور الذكر أن يتذكر العبد فضل الله عليه ، فيستشعر أن فضل الله عليه عظيم ؛ فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر .

وهكذا كانت وصية عثمان لابنه يحذره فيه من الشيطان ومسالكه ومداخله ويدعوه إلى الاحتراز من كيده .

٧ ـ (وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق ، فتحدث مرضاة الله جل جلاله) (٢) :

إن عثمان الأول ـ رحمه الله تعالى ـ كان يرى أن نشر دين الله في كل الآفاق من وسائله: الجهاد في سبيل الله تعالى ، وأن الغاية العليا للجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ، ٥٨] .

ومفهوم العبادة شامل لنشاط الإسلام كله ويفسر ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

ومن أجل هذه الغاية انطلق عثمان الأول بجنوده وشعبه مجاهدًا في سبيل الله ولسان حاله يقول : ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، لقد كانت وسيلة

(١) الظلال (٤/٢٢٩٣) .

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٦ .

العثمانيين من أجل إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض : الجهاد في سبيل الله .

وعندما حاولت دول النصارى أن تعمل على منع توسع الدولة العثمانية وباشروا في شن هجومهم عليها كانت وسيلة الجهاد كالصخرة العظيمة التي تتحطم عليه محاولتهم المتكررة وأمام قادة العثمانيين قول الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ١٩٠ ، ١٩١] .

ولقد عمل العثمانيون بهذه النصيحة والوصية ، فعملوا على إزالة كل العوائق التي تمنع الناس من سماع دعوة الله تعالى التي جاءت لتعطي الناس أكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطويرها .

ولقد جاهدت الدولة العثمانية في سبيل الله تعالى وفتح الله على يديها دول وشعوب لا زال الإسلام باقيًا فيها حتى الآن مثل دول البلقان وعملت على حماية شعوب المسلمين من هجمات النصارى الغاشمة ، فكانت سببًا في بقاء الشمال الأفريقي على إسلامه ودينه وعقيدته ، وكانت عاملاً مهمًا في حماية الأراضي المقدسة من البرتغاليين ومن دخل تحت لوائهم من النصارى إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة التي سنفصلها في بحثنا هذا بإذن الله تعالى .

٨ ـ (من انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول ﷺ الأعظم يوم المحشر) (١) :

إن عثمان ـ رحمه الله تعالى ـ يتبرأ ممن ينحرف عن الحق والعدل من ذريته ويدعو من جاء بعده بالتمسك بالحق وإقامة العدل .

إن العدل هو الدعامة الرئيسية في إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الرباني ؛ فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل ، ولذلك اهتم الإسلام

(١) السلاطين العثمانيون ، ص٣٣ .

بتقرير هـذه القاعدة وتأسيسهـا وتدعيمها ؛ فـأكثر الحديث عنها في الآيـات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ومن هذه النصوص :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] وأمر الله بفعلٍ - كما هو معلوم - يقتضي وجوبه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ثم إن ترك الـعدل يعد ظـلمًا ، واللـه سبحـانه وتعالـى حرم الظلـم وذم أهله وتوعدهم بالعـذاب الشديد يوم القيامة والهـلاك في الدنيا [١] . قال تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

ومن خلال هذه التوجيـهات الربانية حرص عثمان على إقـامة العدل بين الناس وعمل أن يكون هـذا المبدأ واقعًا تعيـشه الأمة العثمـانية من بعده حيث كـان يتحرك بجيوشه ويوظف كل إمكاناته من أجل نشر التوحيد وتعريف الناس بخالقهم ، ولقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد الـسيف وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان وكان دستوره في التعامل مـع الناس قول الله تعالى : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٧ ، ٨٨] .

ولذلك حـرص في وصيتـه على أن يحكم مـن بعده بالحق والعـدل وفي رواية يقول لابنه في الوصية : (اعدل في جميع شئونك . . .) [٢] .

---

(١) انظر : النظام السياسي في الإسلام ، د . محمد أبو فارس ، ص ٤٩ .

(٢) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص٣٣ .

٩ ـ (يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت) (١) :

إن هذه الفقرة من الوصية تبين طبيعة تكوين الدولة العثمانية عن غيرها من الدول ، فالغاية التي قامت من أجلها إنما هي الدفاع عن الإسلام ورفع رايته في مشارق آسيا الصغرى، والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت تهدد المسلمين في ديارهم ، ومن ثم أطلق على زعيم هذه الدولة الناشئة لقب: « الغازي » ، أي المجاهد في سبيل الله ، وكان يتلقى هذا اللقب في حفل مشهود بتسليمه راية الجهاد من عالم كبير (٢) وأن الغازي عثمان ـ رحمه الله ـ دعا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد في سبيل الله فاستجاب له الكثير من المؤمنين الصابرين تحدوهم جميعًا رغبة شديدة في الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية(٣) .

هذه الوصية الخالدة هي التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم .

ترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها تبلغ ١٦,٠٠٠ كيلو متر مربع واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذا على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهي : أزنيق وبورصة (٤) .

* * *

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٦ .
(٢) انظر : المسألة الشرقية ، ص٣٩ .
(٣) انظر : تركيا والسياسة العربية ، ص١٣ .
(٤) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٥ .

المبحث الثاني

السلطان أورخان بن عثمان

٧٢٦ ـ ٧٦١ هـ / ١٣٢٧ ـ ١٣٦٠م

بعد وفاة عثمان تولى الحكم ابنه أورخان، وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وفي عام ٧٢٧هـ الموافق ١٣٢٧م سقطت في يده نيقوميديا ، وتقع في شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة إسطنبول وهي مدينة أزميت الحالية ، فأنشأ بها أول جامعة عثمانية ، وعهد بإدارتها إلى داود القيصري ، أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا في مصر (١) واهتم ببناء الجيش على أسس عصرية وجعله جيشًا نظاميًا (٢) .

وحرص السلطان أورخان على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد ، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده « سليمان » لعبور مضيق «الدردنيل » والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية .

وفي عام (٧٥٨هـ) اجتاز سليمان مضيق « الدردنيل » ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام ولما أدركوا الضفة الغربية ، استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك ، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية ، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها ، وفي الضفة الشرقية أمر « سليمان » جنوده ، أن يركبوا في الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوربي حيث فتحوا ميناء قلعة «ترنب»، و « غاليبولي » التي فيها قلعة « جنا قلعة » و « أبسالا » و « رودستو » وكلها تقع على مضيق « الدردنيل » من الجنوب إلى الشمال ، وبهذا خطا هذا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح « القسطنطينية » (٣) .

---

(١) انظر : قيام الدولة العثمانية ، ص٢٩ .

(٢) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٧ .

(٣) انظر : إلى الدولة العثمانية ، الدكتور جمال عبد الهادي ، ص٢٢ .

أولاً : تأسيس الجيش الجديد ديني تتارى :

إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان ، تأسيسه للجيش الإسلامي ، وحرص على إدخال نظامًا خاصا للجيش ، فقسمه إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص ، أو مائة شخص ، أو ألف شخص ، وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش ، وجعله جيشًا دائمًا بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب ، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها [١] .

كما أنه أضاف جيشًا آخر عرف بالإنكشارية [٢] ، شكله من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة وانتصاراتها الكبيرة في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين ، ودخول أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام ، ثم انضمامهم إلى صفوف المجاهدين في سبيل نشر الإسلام ، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتم تربيتهم تربية إسلامية فكريا وحربيا يعينون في مراكز الجيش المختلفة ، وقد قام العلماء والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حب الجهاد والذود عن الدين والشوق إلى نصرته أو الشهادة في سبيله وأصبح شعارهم (غازيًا أو شهيدًا) عندما يذهبون إلى ساحة الوغى [٣] .

ولقد زعم معظم المؤرخين الأجانب أن جيش الإنكشارية تكون من انتزاع أطفال النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق الإسلام ، بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى بنظام (الدفشرية) ، وزعموا أن هذا النظام كان يستند إلى ضريبة إسلامية شرعية أطلقوا عليها اسم « ضريبة الغلمان » وأسموها أحيانًا « ضريبة الأبناء » ، وهي ضريبة زعموا أنها تبيح للمسلمين العثمانيين أن ينتزعوا خمس عدد أطفال كل مدينة أو قرية نصرانية ، باعتبارهم خمس الغنائم التي هي حصة بيت مال المسلمين ، ومن هؤلاء المؤرخين الأجانب الذين افتروا على الحقيقة ، كارل بروكلمان، وجيبونز ، وجب [٤] ، إن الحقيقة تقول: إن نظام الدثرمة المزعوم ليس

(١) انظر : قيام الدولة العثمانية ، ص٣٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٣٠٢ .
(٣) انظر : قيام الدولة العثمانية ، ص٣٠٢ .
(٤) انظر : جوانب مضيئة ، ص١٢٢ .

سوى كذبة دُسَّت على تاريخ أورخان بن عثمان ومراد بن أورخان وانسحبت من بعده على العثمانيين قاطبة ، فلم يكن نظام الدثرمة هذا إلا اهتمامًا من الدولة العثمانية بالمشردين من الأطفال النصارى الذين تركتهم الحروب المستمرة أيتامًا أو مشردين ، فالإسلام الذي تدين الدولة العثمانية به يرفض رفضًا قاطعًا ما يسمى بضريبة الغلمان التي نسبها المغرضون من المؤرخين الأجانب إليها .

لقد كانت أعداد هائلة من الأطفال فقدوا آباءهم وأمهاتهم بسبب الحروب والمعارك، فاندفع المسلمون العثمانيون إلى احتضان أولئك الأطفال الذين هاموا في طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم لآبائهم وأمهاتهم، وحرصوا على تأمين مستقبل كريم لهم ، وهل من مستقبل كريم وأمين إلا في الإسلام ؟ أفإن حرص المسلمون على أن يعتنق الأطفال المشردون التائهون الإسلام ، انبرى المفترون يزعمون أن المسلمين كانوا ينتزعونهم من أحضان آبائهم وأمهاتهم ، ويكرهونهم على الإسلام .

ومن المؤسف أن هذه الفرية الحاقدة ، وهذا الإفك المبين ، وهذا البهتان العظيم التقفه بعض المؤرخين المسلمين يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم وكأنه أمر مسلم به ويطرح على الطلاب كأنه حقيقة من الحقائق ، ولقد تأثر بكتب المؤرخين الأجانب مجموعة من المؤرخين المسلمين ، ومن هؤلاء من يشهد له بالغيرة على الإسلام، فأصبحوا يرددون هذا البهتان في كتبهم من أمثال ، المؤرخ محمد فريد بك المحامي في كتابه: الدولة العلية العثمانية ، والدكتور علي حسون في كتابه : تاريخ الدولة العثمانية ، والمؤرخ محمد كرد في كتابه: خطط الشام ، والدكتور عمر عبد العزيز في كتابه « محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية » والدكتور عبد الكريم غرايبه في كتاب العرب والأتراك .

الحقيقة تقول: كل من ذكر ضريبة الغلمان أو أخذهم بالقوة من ذويهم تحت قانون أخذ خمس أطفال المدن والقرى ليس له دليل إلا كتب المستشرقين ، كجب أو المؤرخ النصراني سوموفيل ، أو بروكلمان وهؤلاء لا يطمئن إليهم في كتابة التاريخ الإسلامي ولا إلى نواياهم تجاه الإسلام وتاريخ الإسلام .

إن الذين يربون تربية خاصة على الجهاد لم يكونوا نصارى وإنما كانوا أبناء آباء مسلمين انخلعوا عن النصرانية ، واهتدوا إلى الإسلام ، وشرعوا من أنفسهم وعن طواعية لا عن إكراه ، يقدمون أبناءهم للسلطان ليستكمل تربيتهم تربية إسلامية، أما باقي الأطفال فقد كانوا من الأيتام والمشردين الذين أفرزتهم الحروب فاحتضنتهم الدولة العثمانية .

إن حقيقة الجيش الجديد الذي أنشأه أورخان بن عثمان هي تشكيل جيش نظامي يكون دائم الاستعداد والتواجد قريبًا منه في حالة الحرب أو السلم على حد سواء، فشكل من فرسان عشيرته ومن مجاهدي النفير الذين كانوا يسارعون لإجابة داعي الجهاد ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام في قلوبهم ، وحسن إسلامهم وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم هذا الجيش حتى سارع إلى حيث يقيم العالم المؤمن التقي الحاج بكتاش وطلب منه أن يدعو لهم خيرًا ، فتلقاهم العالم المؤمن خير لقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود ، ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم ، ويجعل سيوفهم حادة قاطعة ، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الله ثم مال تجاه أورخان فسأله : هل اتخذت لهذا الجيش اسمًا . . ؟ قال: لا ، قال : فليكن اسمه « يني جري » وتلفظ « يني تشري » أي الجيش الجديد.

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال ، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم « ذي الفقار » تيمنًا بسيف الإمام علي رضي الله عنه (١).

لقد كان علاء الدين بن عثمان أخو أورخان صاحب الفكرة ، وكان عالمًا في الشريعة ومشهورًا بالزهد والتصوف الصحيح (٢) .

وعمل أورخان على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين ، فاختار عددًا من شباب الأتراك ، وعددًا من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، فضمهم إلى الجيش واهتم اهتمامًا كبيرًا بتربيتهم

---

(١) انظر : جوانب مضيئة ، ص١٤٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٤ .

تربية إسلامية جهادية .

ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده ، وأصبح يضم آلافًا من المجاهدين في سبيل الله .

لقد كان أورخان وعلاء الدين متفقين على أن الهدف الرئيسي لتشكيل الجيش الجديد ، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها ، والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا في نشر الإسلام بعد أن يكونوا تلقوا تربية إسلامية جهادية وترسخت في قلوبهم مبادئ الإسلام سلوكًا وجهادًا .

وخلاصة القول : أن السلطان أورخان ، لم ينتزع غلامًا نصرانيًا واحدًا من بيت أبيه ، ولم يكره غلامًا نصرانيًا واحدًا على اعتناق الإسلام ، وأن كل ما زعمه بروكلمان وجيب وجيبونز ، كذب واختلاق ، ينبغي أن تزال آثاره من كتب تاريخنا الإسلامي [(١)] إن من متقضيات الأمانة العلمية ، والأخوة الإسلامية ، تضع في عنق كل مسلم غيور ، وخاصة العلماء والمثقفين والمفكرين ، والمؤرخين والمدرسين ، والباحثين ، والإعلاميين ، أمانة نسف هذه الفرية ودحض هذه الشبهة التي ألصقت بالعثمانيين وأصبحت كأنها حقيقة لا تقبل النقاش والمراجعة والحوار .

ثانيًا : سياسة أورخان الداخلية والخارجية :

كانت غزوات أورخان منصبة على الروم ولكن حدث في سنة (٧٣٦هـ - ١٣٣٦م) أن توفي أمير قره سي - وهي إحدى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم واختلف ولده من بعده وتنازعا الإمارة . واستفاد أورخان من هذه الفرصة فتدخل في النزاع وانتهى بالاستيلاء على الإمارة وقد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن ترث دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وترث ما كانت تملكه واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسلطانه .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص١٥٥ .

واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وإلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية ونظم شئون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية [١] وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة ، وكانت كل قرية بها مدارسها وكل مدينة بها كليتها التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافزيقا وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوي والبلاغة والهندسة والفلك [٢] وبالطبع تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنة والفقه والعقائد .

وهكذا أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سي عشرين سنة دون أن يقوم بأي حروب ، بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة، وفي تعزيز الأمن الداخلي ، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها وإقامة المنشآت العامة الشاسعة ، مما يشهد بعظمة أورخان وتقواه ، وحكمته وبُعد نظره ، فإنه لم يشن الحرب تلو الحرب طمعًا في التوسع ، وإنما حرص على تعزيز سلطانه في الأراضي التي يتاح له ضمها ، وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة المدني والعسكري والتربوي والثقافي وبذلك تصبح جزءًا لا يتجزأ من أملاكهم ، بحيث أصبحت أملاك الدولة في آسيا الصغرى متماثلة ومستقرة .

وهذا يدل على فهم واستيعاب أورخان لسنة التدرج في بناء الدول وإقامة الحضارة، وإحياء الشعوب .

وما أن تم أورخان البناء الداخلي حتى حدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية وطلب الإمبراطور (كونتاكوزينوس) مساعده السلطان أورخان ضد خصمه، فأرسل قوات من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثماني في أوربا . وفي عام ١٣٥٨ أصاب زلزال مدن تراقيا فانهارت أسوار غاليبولي وهجرها أهلها مما سهل على العثمانيين دخولها ، وقد احتج الإمبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى - وكان رد أورخان أن العناية الإلهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته ، وما لبثت

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، الدكتور سالم الرشيدي ، ص٢٥ .

(٢) انظر : في أصول التاريخ العثماني ، محمد عبد الرحيم ، ص٤٠ .

غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوروبا ، ومنها انطلقت الحملات الأولى التي توجت في النهاية بالاستيلاء على كل شبه جزيرة البلقان . . وحين انفرد حنا الخامس باليولوجس بحكم بيزنطة أقر كل فتوح أورخان في أوروبا في مقابل تعهد السلطان بتسهيل وصول الطعام والمؤن إلى القسطنطينية . وأرسل أورخان أعدادًا كبيرة من القبائل المسلمة بغية الدعوة إلى الإسلام ومنع تمكن النصارى من طرد العثمانيين من أوربا [١] .

ثالثًا : العوامل التي ساعدت السلطان أورخان في تحقيق أهدافه :

١ ـ المرحلية التي سار عليها أورخان واستفادته من جهود والده عثمان ووجود الإمكانات المادية والمعنوية التي ساعدتهم على فتح الأراضي البيزنطية في الأناضول وتدعيم سلطتهم فيها ، ولقد تميزت جهود أورخان بالخطى الوئيدة والحاسمة في توسيع دولته ومد حدودها ، ولم ينتبه العالم المسيحي إلى خطورة الدولة العثمانية إلا بعد أن عبروا البحر واستولوا على غاليبولي [٢].

٢ ـ كان العثمانيون ـ يتميزون ـ في المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية ـ بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الديني وهو المذهب السني .

٣ ـ وصول الدولة البيزنطية إلى حالة من الإعياء الشديد وكان المجتمع البيزنطي قد أصابه تفكك سياسي وانحلال ديني واجتماعي ، فسهل على العثمانيين ضم أقاليم هذه الدولة .

٤ ـ ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة في الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر ، ولذلك تعذر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف في جبهة واحدة ضد العثمانيين[٣].

---

(١) انظر : أصول التاريخ العثماني ، ص٤٧ .

(٢) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٢٢ .

(٣) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٢٣ .

٥ ـ الخلاف الديني بين روما والقسطنطينية أي بين الكاثوليكية والأرثوذكسية الذي استحكمت حلقاته وترك آثارًا عميقة الجذور في نفوس الفريقين.

٦ ـ ظهور النظام العسكري الجديد على أسس عقدية ، ومنهجية تربوية وأهداف ربانية وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين.

* * *

المبحث الثالث

السلطان مراد الأول

٧٦١ - ٧٩١هـ / ١٣٦٠ - ١٣٨٩م

كان مراد الأول شجاعًا مجاهدًا كريمًا متدينًا ، وكان محبًا للنظام متمسكًا به ، عادلا مع رعاياه وجنوده ، شغوفًا بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين ، شكل منهم مجلسًا لشورته ، وتوسع في آسيا الصغرى وأوربا في وقت واحد .

ففي أوربا هاجم الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية ثم استولى على مدينة أدرنة في عام (٧٦٢هـ / ١٣٦٠م) وكانت لتلك المدينة أهمية استراتيجية في البلقان، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية . واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) ، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوربا ، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية ، وكان هدف مراد من هذه النقلة :

١ - استغلال مناعة استحكامات أدرنة الحربية وقربها من مسرح العمليات الجهادية .

٢ - رغبة مراد في ضم الأقاليم الأوربية التي وصلوا إليها في جهادهم وثبتوا أقدامهم فيها .

٣ - جمع مراد في هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الإنكشارية .

واستمرت أدرنة على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني حتى فتح العثمانيون القسطنطينية في عام (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م) ، فأصبحت

عاصمة لدولتهم [(١)] .

أولاً : تحالف صليبي ضد مراد :

مضى السلطان مراد في حركة الجهاد والدعوة وفتح الأقاليم في أوربا ، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا ، وكانت لانتصاراته أصداء بعيدة ، فتكون تحالف أوربي بلقاني صليبي باركه البابا أوربا الخامس ، وضم الصربيين والبلغاريين والمجريين ، وسكان إقليم والاشيا . وقد استطاعت الدول الأعضاء في التحالف الصليبي أن تحشد جيشًا بلغ عدده ستين ألف جندي تصدى لهم القائد العثماني « لالاشاهين » بقوة تقل عددًا عن القوات المتحالفة ، وقابلهم على مقربة من « تشيرمن » على نهر مارتيزا ، حيث وقعت معركة مروعة وانهزم الجيش المتحالف ، وهرب الأميران الصربيان ، ولكنهما غرقا في نهر مارتيزا ، ونجا ملك المجر بأعجوبة من الموت ، أما السلطان مراد فكان في هذه الأثناء مشتغلاً بالقتال في بلاد آسيا الصغرى حيث فتح عدة مدن ثم عاد إلى مقر سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم [(٢)] .

وكان من نتائج انتصار العثمانيين على نهر مارتيزا أمور مهمة منها :

١ ـ تم لهم فتح إقليم تراقيا ومقدونيا ووصلوا إلى جنوبي بلغاريا وإلى شرقي صربيا .

٢ ـ أصبحت مدن وأملاك الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا تتساقط في أيديهم كأوراق الخريف [(٣)] .

أول معاهدة بين الدولة العثمانية والمسيحية :

لما اشتد ساعد الدولة العثمانية خاف مجاوروها ، خصوصًا الضعفاء منهم ، فبادرت جمهورية (راجوزه) [(٤)] وأرسلت إلى السلطان مراد رسلاً ليعقدوا مع

---

(١) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، د . إسماعيل باغي ، ص٣٨ .

(٢) انظر : تاريخ الدولة العثمانية العلية ، ص١٣١ .

(٣) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٣٧ .

(٤) تطل على البحر الأدرياتيكي .

السلطان مراد معاهدة ودية وتجارية تعاهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهب وهذه أول معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية [١] .

ثانيا : معركة قوصرة :

كان السلطان مراد قد توغل في بلاد البلقان بنفسه وعن طريق قواده مما أثار الصرب، فحاولوا في أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا في الهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وما جاورها ولكنهم فشلوا في تحقيق انتصارات تذكر على العثمانيين ، فتحالف الصرب والبوسنيون والبلغار وأعدوا جيشًا أوروبيًا صليبيًا كثيفًا لحرب السلطان الذي كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعدادًا قويًا إلى منطقة كوسوفا في البلقان، ومن الموافقات التي تذكر أن وزير السلطان مراد الذي كان يحمل معه مصحفًا فتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] فاستبشر بالنصر واستبشر معه المسلمون ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين وحمي وطيسه واشتدت المعركة وانجلت الحرب عن انتصار المسلمين انتصارًا باهرًا حاسمًا [٢] .

١ ـ استشهاد السلطان مراد : بعد الانتصار في قُوصُرة ، قام السلطان مراد يتفقد ساحة المعركة ويدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ويدعو لهم ، كما كان يتفقد الجرحى ، وفي أثناء ذلك قام جندي من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه ، ولكنه تظاهر بأنه جاء يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن إسلامه على يديه ، وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام في حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فاستشهد رحمه الله في ١٥ شعبان ٧٩١هـ [٣] .

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، د. محمد فريد ، ص١٣٢ .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، د. سالم الرشيدي ، ص٣٠،والفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٨٩.

(٣) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص١٦ .

٢ـ الكلمات الأخيرة للسلطان مراد :

« لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله ، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو ، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام . أطيعوا ابني يزيد ، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذونهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء » [١] ، لقد استشهد هذا السلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عامًا .

٣ ـ دعاء السلطان مراد قبل اندلاع معركة قوصرة :

كان السلطان مراد يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده ، ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية ، يقول السلطان مراد في مناجاته لربه : « يا الله يا رحيم يا رب السموات يا من تتقبل الدعاء لا تخزني يا رحمن يا رحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة أرسل السماء علينا مدرارًا وبدد سحب الظلام فنرى عدونا وما نحن سوى عبيدك المذنبين إنك الوهاب ونحن فقراؤك. ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع ، وأنت العليم يا علام الغيوب والأسرار وما تخفي الصدور ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة ولا يحملني طلب المغنم فأنا لا أطمع إلا في رضاك يا الله يا عليم يا موجود في كل الوجود [٢] أفديك روحي فتقبل رجائي ولا تجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام العدو . يا الله يا أرحم الراحمين لا تجعلني سببًا في موتهم ، بل اجعلهم المنتصرين ، إن روحي أبذلها فداءً لك يا رب إني وددت ولا زلت دومًا أبغي الاستشهاد من أجل جند الإسلام ، فلا ترني يا إلهي محنتهم واسمح لي يا إلهي هذه المرة أن أستشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك . . »[٣] .

(١) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٩١ .

(٢) أي موجود بعلمه في كل الوجود .

(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٩٠ .

وفي رواية : « يا إلهي ، إنني أقسم بعزتك وجلالك أننى لا أبتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية ، ولكنني أبتغي رضاك ، ولا شيء غير رضاك يا إلهي ، إنني أقسم بعزتك وجلالك أنني في سبيلك ، فزدني تشريفًا بالموت في سبيلك »(١).

وفي رواية : « يا إلهي ، ومولاي ، تقبل دعائي وتضرعي ، وأنزل علينا برحمتك غيثًا يطفئ من حولنا غبار العواصف ، وأغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات، حتى نتمكن من إبصار مواقع عدونا فنقاتله في سبيل إعزاز دينك العزيز .

إلهي ومولاي ، إن الملك والقوة لك ، تمنحها لمن تشاء من عبادك ، وأنا عبدك العاجز الفقير ، تعلم سري ، وجهري ، أقسم بعزتك وجلالك أنني لا أبتغي من جهادي حطام هذه الدنيا الفانية ، ولكني أبتغي رضاك ولا شيء غير رضاك .

إلهي ، ومولاي ، أسألك بجاه وجهك الكريم ، أن تجعلني فداء للمسلمين جميعًا ، ولا تجعلني سببًا في هلاك أحد من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم.

إلهي ، ومولاي ، إن كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك ، لأنعم بجوارك ونعم الجوار جوارك .

إلهي ، ومولاي ، لقد شرفتني بأن هديتني إلى طريق الجهاد في سبيلك ، فزدني شرفًا بالموت في سبيلك » (٢) .

إن هذا الدعاء الخاشع دليل على معرفة السلطان مراد لله عز وجل ، وعلى أنه حقق شروط كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ولقد اجتمعت شروطها في سلوكه وحياته فهو على :

- علم بمعناها المراد بها نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل بذلك قال تعالى : **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾** [محمد: ١٩].

وقال تعالى : **﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** [الزخرف: ٨٦] أي بـ « لا إله إلا

---

(١) انظر : جوانب مضيئة ، ص١٩٠ .

(٢) جوانب مضيئة ، ص ٤٠ ، ٤١ .

الله » وهم يعلمون بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم .

ـ اليقين المنافي للشك ، فقد كان السلطان مراد مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة ، يقينًا جازمًا ، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن[1] ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

ـ قبوله لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه ، وانقياده لما دلت عليه من أوامر واجتناب للنواهي قال تعالى : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان : ٢٢] .

قال تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥].

ـ كان صادقًا مع ربه ، مخلصًا إخلاصًا طهر به شوائب الشرك من نفسه قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة : ٥] .

ـ كان مخلصًا لخالقه مستعدًا لبذل النفس والمال في سبيله قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وفي الحديث الصحيح : « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[2] .

---

(١) معارج القبول (٢/ ٤١٩).

(٢) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١/ ١١) رقم١٦ .

لقد فهم السلطان مراد حقيقة الإيمان وكلمة التوحيد وذاق آثارها في حياته ، فنشأت في نفسه أنفة وعزة مستمدة من الإيمان ، فأيقن أنه لا نافع إلا الله، فهو المحيي والمميت ، وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة ومن ثم نزع من قلبه كل خوف إلا منه سبحانه ، فلم يطأطئ رأسه أمام أحد من الخلق ، ولا يتضرع إليه، ولا يرتع من كبريائه وعظمته ؛ لأنه على يقين بأن الله هو القادر العظيم، ولقد أكسبه الإيمان بالله قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل والتطلع إلى معالي الأمور ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، فكان في المعارك التي خاضها ثابتًا كالجبال الراسية ، وكان على يقين راسخ بأن المالك الوحيد لنفسه وماله هو الله سبحانه وتعالى ، ولذلك لم يبال بأن يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص .

إن السلطان مراد عاش حقيقة الإيمان ولذلك اندفع إلى ساحات الجهاد ، وبذل ما يملكه من أجل دعوة الإسلام .

لقد قاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره قال المؤرخ البيزنطي هالكو نديلاس عن مراد الأول: (قام مراد بأعمال هامة كثيرة . دخل ٣٧ معركة سواء في الأناضول أو في البلقان، وخرج منها جميعًا ظافرًا ، وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون النظر لفوارق العرق والدين) [(١)] .

ويقول عنه المؤرخ الفرنسي كرينارد : (كان مراد واحدًا من أكبر رجالات آل عثمان ، وإذا قومنا تقويمًا شخصيًا ، نجده في مستوى أعلى من كل حكام أوروبا في عهده) [(٢)] .

لقد ورث مراد الأول عن والده إمارة كبيرة بلغت ٩٥,٠٠٠ كيلو متر مربع وعند استشهاده ، تسلم ابنه بايزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠,٠٠٠

---

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٩ .
(٢) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٩ .

كيلو متـر مربع بمعنى أنها زادت في مدى حـوالي ٢٩ سنة أكثر من خمسـة أمثال ما تركها له والده أوروخان [١] .

أما النتائج التي ترتبت على انتصار المسلمين في معركة قوصوه ما يلي :

١ ـ انتشار الإسـلام في منطقة البلقـان وتحول عدد كبير من الأشـراف القدامى والشيوخ إلى الإسلام بمحض إرادتهم .

٢ ـ اضطرت العديد مـن الدول الأوروبية إلى أن تخطب ود الدولة العثـمانية، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم ، وقام البعـض الآخر بإعلان ولائه للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم .

٣ ـ امتـدت سلطـة العثـمانيين عـلى أمراء المجـر ورومانيـا والمناطـق المجاورة للإدرياتيك حتى وصل نفوذهم إلى ألبانيا [٢] .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص٢٠ .

(٢) انظر : الفتوحات الإسلامية عبر العصور ، د. عبد العزيز العمري ، ص٣٨٨ .

المبحث الرابع

السلطان بايزيد الأول

٧٩١ ـ ٨٠٥ هـ / ١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م

بعد استشهاد السلطان مراد تولى الحكم ابنه بايزيد ، وكان شجاعًا شهمًا كريمًا متحمسًا للفتوحات الإسلامية ، ولذلك اهتم اهتمامًا كبيرًا بالشئون العسكرية فاستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد كمثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب « الصاعقة » [(١)] .

أولاً : سياسته مع الصرب :

شرع بايزيد في إقامة علاقات ودية مع الصرب مع أنهم كانوا السبب في قيام تحالف بلقاني ضد الدولة العثمانية ، وكان غرض بايزيد من هذه العلاقة اتخاذ دولة الصرب كحاجز بينه وبين المجر ، وكان يشعر بضرورة اتخاذ حليف له في سياسته العسكرية النشطة التي استهدفت الإمارات السلجوقية التركية الإسلامية في آسيا الصغرى ولذلك وافق بايزيد على أن يحكم الصرب ابن الملك (لازار) الذي قتل في معركة قوصوة وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا ، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصرب وأعرافها وتقاليدها وعاداتها ، وأن يدينا له بالولاء ويقدما له جزية وعددًا معينًا من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم في حروبه [(٢)] وتزوج ابنة الملك لازار .

ثانيًا : إخضاع بلغاريا للسيادة العثمانية :

بعد أن تم التفاهم مع الصرب وجه بايزيد ضربة خاطفة في عام

---

(١) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٤٠ .

(٢) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٤١ .

(٧٩٧هـ/ ١٣٩٣م) إلى بلغاريا ، فاستولى عليها وأخضع سكانها ، وبذلك فقدت البلاد استقلالها السياسي ، وكان لسقوط بلغاريا في قبضة الدولة العثمانية صدى هائل في أوروبا وانتشر الرعب والفزع والخوف في أنحائها وتحركت القوى المسيحية الصليبية للقضاء على الوجود العثماني في البلقان [١] .

ثالثًا : التكتل الدولي المسيحي الصليبي ضد الدولة العثمانية :

قام سيجسموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع بالدعوة لتكتل أوروبي صليبي مسيحي ضد الدولة العثمانية ، وكان ذلك التكتل من أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر ، من حيث عدد الدول التي اشتركت فيه ، ثم أسهمت فيه بالسلاح والعتاد والأموال والقوات وبلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة الصليبية ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا،وإنجلترا، وإسكتلندا وسويسرا ولوكسمبرج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الإيطالية) [٢] .

وتحركت الحملة عام (٨٠٠هـ/ ١٣٩٦م) إلى المجر ، ولكن زعماءها وقادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة . فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمانيون الهجوم ، ولكن قواد الحملة شرعوا بالهجوم ، وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى نيكوبوليس شمال البلقان وبدأوا في حصارها وتغلبوا في أول الأمر على القوات العثمانية ، إلا أن بايزيد ظهر فجأة ومعه حوالي مائة ألف جندي، وهو عدد يقل قليلاً عن التكتل الأوروبي الصليبي ، ولكنه يتفوق عليهم نظامًا وسلاحًا ، فانهزم معظم النصارى ولاذوا بالفرار والهروب وقتل وأسر عدد من قادتهم . وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرة وفيرة واستولوا على ذخائر العدو [٣] وفي نشوة النصر والظفر قال السلطان بايزيد : إنه سيفتح إيطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس برومة [٤] .

(١) الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٤١ .
(٢) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون ، ص٢٤ ، ٢٥ .
(٣) الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٤٢ .
(٤) انظر : محمد الفاتح ، د . سالم الرشيدي ، ص٣٣ .

لقد وقع كثير من أشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفـ...سه في الأسر ، فقبل السلطان بايزيد دفع الفدية وأطلق سراح الأسرى والكونت دي نيفر ، وكان قد ألزم بالقسم على أن لا يعود لمحاربته ، قال له : إني أجيز لك أن لا تحفظ هذا اليمين فأنت في حل من الرجوع لمحاربتي إذ لا شيء أحب إلى من محاربة جميع مسيحي أوروبا والانتصار عليهم [(١)] .

أما سجسموند ملك المجر كان قد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه وقوته أن قال: لو انقضت السماء عليائها لأمسكناها بحرابنا ـ فقد ولى هاربًا ومعه رئيس فرسان رودس ولما بلغا في فرارهما شاطئ البحر الأسود وجد هناك الأسطول النصراني فوثبا على إحدى السفن وفرت بهما مسرعة لا تلوي على شيء وتضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوروبي بعد معركة نيكوبوليس وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة [(٢)] لقد كان ذلك النصر المظفر له أثر على بايزيد والمجتمع الإسلامي ، فقام بايزيد ببعث رسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامي يبشرهم بالانتصار العظيم على النصارى ، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً ماديًا على انتصاره . واتخذ بايزيد لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول ، كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعًا شرعيًا رسميًا فتزداد هيبته في العالم الإسلامي ، وبالطبع وافق السلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العباسي على هذا الطلب لأنه يرى بايزيد حليفه الوحيد ضد قوات تيمورلنك التي كانت تهدد الدولة المملوكية والعثمانية ، وهاجر إلى الأناضول آلاف المسلمين الذين قدموا لخدمة الدولة العثمانية ، وكانت الهجرة مليئة بالجنود وممن أسهموا في الحياة الاقتصادية والعلمية والحكومية في إيران والعراق وما وراء النهر ـ هذا بالإضافة إلى الجموع التي فرت من

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد بك ، ص١٤٤ .
(٢) انظر : محمد الفاتح ، د . سالم الرشيدي ، ص٣٣ .

أمام الزحف التيمورلنكي على آسيا الوسطى [(١)] .

رابعًا : حصار القسطنطينية :

استطاع بايزيد قبل معركة نيكوبوليس أن يشدد النكير على الإمبراطورية البيزنطية وأن يفرض على الإمبراطور أن يعين قاضيًا في القسطنطينية للفصل في شئون المسلمين وما لبث أن حاصر العاصمة البيزنطية وقبل الإمبراطور إيجاد محكمة إسلامية وبناء مسجد وتخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية الإسلامية، كما تنازل لبايزيد عن نصف حي غلطة الذي وضعت فيه حامية عثمانية قوامها ٦,٠٠٠ جندي وزيد الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية ، وفرضت الخزانة العثمانية رسومًا على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة ، وأخذت المآذن تنقل الأذان إلى العاصمة البيزنطية [(٢)] .

وبعد الانتصار العظيم الذي حققه العثمانيون في معركة نيكوبوليس ثبت العثمانيون أقدامهم في البلقان ، حيث انتشر الخوف والرعب بين الشعوب البلقانية، وخضعت البوسنة وبلغاريا إلى الدولة العثمانية واستمر الجنود العثمانيون يتتبعون فلول النصارى في ارتدادهم . وعاقب السلطان بايزيد حكام شبه جزيرة المورة الذين قدموا مساعدة عسكرية للحلف الصليبي [(٣)] وعقابًا للإمبراطور البيزنطي على موقفه المعادي طلب بايزيد منه أن يسلم القسطنطينية وإزاء ذلك استنجد الإمبراطور مانويل بأوروبا دون جدوى . والحق أن الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفًا رئيسيًا في البرنامج الجهادي للسلطان بايزيد الأول . ولذلك فقد تحرك على رأس جيوشه وضرب حصارًا محكمًا حول العاصمة البيزنطية وضغط عليها ضغطًا لا هوادة فيه واستمر الحصار حتى أشرفت المدينة في نهايتها على السقوط - بينما كانت أوروبا تنظر سقوط العاصمة العتيدة بين يوم وآخر إذا بالسلطان ينصرف عن فتح القسطنطينية

---

(١) انظر : في أصول التاريخ العثماني ، أحمد عبد الحليم ، ص٥٤ ، ٥٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص٥٣ .

(٣) الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص٤٢ .

لظهور خطر جديد على الدولة العثمانية [١] .

خامسًا : الصدام بين تيمورلنك وبايزيد :

ينتمي تيمورلنك إلى الأسر النبيلة في بلاد ما وراء النهر ، وفي عام ١٣٦٩م جلس على عرش خراسان وقاعدته سمرقند ، واستطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة وأن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الإسلامي ؛ فقد انتشرت قواته الضخمة في آسيا من دلهي إلى دمشق ، ومن بحر آرال إلى الخليج العربي واحتل فارس وأرمينيا وأعالي الفرات ودجلة والمناطق الواقعة بين بحر قزوين إلى البحر الأسود وفي روسيا سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار الفولجا والدون والدنيبر وأعلن بأنه سيسيطر على الأرض المسكونة ويجعلها ملكًا له وكان يردد : « إنه يجب ألا يوجد سوى سيد واحد على الأرض طالما أنه لا يوجد إلا إله واحد في السماء » [٢] وقد اتصف تيمورلنك بالشجاعة والعبقرية الحربية والمهارة السياسية وكان قبل أن يقرر أمرا يجمع المعلومات ويرسل الجواسيس ثم يصدر أوامره بعد تروي وتأني بعيدة عن العجلة وكان من الهيبة بحيث إن جنوده كانوا يطيعون أوامره أيا كانت .

وكان تيمور باعتباره مسلمًا يرعى العلماء ورجال الدين وبخاصة أتابع الطريقة النقشبندية [٣] .

وكانت هناك عوامل وأسباب ساهمت في إيجاد صراع بين تيمورلنك وبايزيد منها :

١ ـ لجأ أمراء العراق الذين استولى تيمور على بلادهم إلى بايزيد ، كما لجأ إلى تيمور بعض أمراء آسيا الصغرى ـ وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرضون من استجاروا به على شن الحرب ضد الطرف الآخر .

٢ ـ تشجيع النصارى لتيمورلنك ودفعه للقضاء على بايزيد .

---

(١) الدولة العثمانية ، د. إسماعيل أحمد ، ص٤٣ .

(٢) في أصول التاريخ العثماني ، ص٥٦ .

(٣) في أصول التاريخ العثماني ،ص٥٦ .

٣ ـ الرسائل النارية بين الطرفين ، ففي إحدى الرسائل التي بعث بها تيمور إلى بايزيد أهانه ضمنيًا حين ذكره بغموض أصل أسرته ، وعرض عليه العفو على اعتبار أن آل عثمان قد قدموا خدمات جليلة إلى الإسلام ، ولو أنه اختتم رسالته ـ بصفته زعيمًا للترك ـ باستصغار شأن بايزيد الذي قبل التحدي وصرح بأنه سيتعقب تيمورلنك إلى تبريز وسلطانية [١] .

وكان الزعيمان تيمورلنك وبايزيد يسعى كل منهما لتوسيع دولته .

سادسًا : انهيار الدولة العثمانية :

تقدم تيمورلنك بجيوشه واحتل سيواس ، وأباد حاميتها التي كان يقودها الأمير أرطغرل بن بايزيد والتقى الجيشان قرب أنقرة في عام ٨٠٤هـ / ١٤٠٢ م وكانت قوات بايزيد تبلغ ١٢٠,٠٠٠ مجاهد لملاقاة خصمه وزحف تيمورلنك على رأس قوات جرارة في ٢٠ يوليو ١٤٠٢(٨٠٤هـ) وانتصر المغول ووقع بايزيد في الأسر وظل يرسف في أغلاله حتى وافاه الأجل في السنة التالية [٢] .

وكانت الهزيمة بسبب اندفاع وعجلة بايزيد فلم يحسن اختيار المكان الذي نزل فيه بجيشه الذي لم يكن يزيد عن مائة وعشرين ألف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمائة ألف ، ومات كثير من جنود بايزيد عطشًا لقلة الماء وكان الوقت صيفًا شديد القيظ . ولم يكد يلتقي الجيشان في أنقرة حتى فر الجنود التتار الذين كانوا في جيش بايزيد وجنود الإمارات الآسيوية التي فتحها منذ عهد قريب وانضموا إلى جيش تيمورلنك ولم يجد السلطان العثماني بعد ذلك ما أظهره هو وبقية جيشه من الشجاعة والاستماتة في القتال [٣] .

لقد فرحت الدول النصرانية في الغرب بنصر تيمورلنك وهزها الطرب لمصرع بايزيد وما آلت إليه دولته من التفكك والانحلال وبعث ملوك إنجلترا وفرنسا وقشتالة

(١) المصدر السابق نفسه ، ص٥٧ .
(٢) الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٢، ٣.
(٣) محمد الفاتح ، د. سالم الرشيدي ، ص٣٥ .

وإمبراطور القسطنطينية إلى تيمورلنك يهنئونه على ما أحرزه من النصر العظيم والظفر المجيد واعتقدت أوروبا أنها قد تخلصت إلى الأبد من الخطر العثماني الذي طالما روعها وهددها (١) .

واستولى تيمورلنك بعد هزيمة بايزيد على أزنيق وبروسة وغيرها من المدن والحصون ثم دك أسوار أزمير وخلصها من قبضة فرسان رودس (٢) (فرسان القديس يوحنا) ، محاولاً بذلك أن يبرر موقفه أمام الرأي العام الإسلامي الذي اتهمه بأنه وجه ضربة شديدة إلى الإسلام بقضائه على الدولة العثمانية وحاول تيمورلنك بقتاله لفرسان القديس يوحنا أن يضفي على معارك الأناضول طابع الجهاد (٣) .

كما أعاد تيمورلنك أمراء آسيا الصغرى إلى أملاكهم السابقة، ومن ثم استرجاع الإمارات التي ضمها بايزيد لاستقلالها كما بذر تيمور بذور الشقاق بين أبناء بايزيد المتنازعين على العرش (٤) .

سابعًا : الحروب الداخلية :

لقد تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي تمثل في نشوب حرب أهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات (٨٠٦ ـ ٨١٦هـ ـ ١٤٠٣ ـ ١٤١٣م) (٥) .

كان لبايزيد خمسة أبناء اشتركوا معه في القتال ، أما مصطفى فقد ظن أنه قتل في المعركة ، أما موسى فقد أسر مع والده ونجح الثلاثة الآخرون في الفرار . أما أكبرهم سليمان فقد ذهب إلى أدرنة وأعلن نفسه سلطانًا هناك ، وذهب عيسى إلى بروسة وأعلن للناس أنه خليفة أبيه ، ونشبت الحرب بين هؤلاء الإخوة الثلاثة يتنازعون بينهم أشلاء الدولة الممزقة والأعداء يتربصون بهم من كل جانب . ثم

(١) محمد الفاتح ، د. سالم الرشيدي ، ص٣٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٣٥ .
(٣) انظر : في أصول التاريخ العثماني ، ص٥٩ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص٥٩ .
(٥) الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٤٣ .

أطلق تيمورلنك الأمير موسى ليؤجج به نار الفتنة ويزيدها ضرامًا وشدة وأخذ يحرضهم على القتال ويغري بعضهم ببعض [١] .

وبعد عام ارتحل تيمورلنك بجيشه الأخضر واليابس وترك وراءه البلاد على أسوأ حال من الدمار والخراب والفوضى [٢] .

لقد كانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية ، ولقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة ، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث ، فيميز الله الخبيث من الطيب ، وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف ، فقد شاء الله - تعالى - أن يبتلي المؤمنين ، ويختبرهم ، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك .

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص ، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكين ورسوخ قال تعالى :

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ٢ ، ٣] .

الفتنة : الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ، ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة ، وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأمور ، ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم [٣] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : (والاستفهام في قوله تعالى : **﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾** إنكاري ومعناه : أن الله سبحانه لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان)[٤] كما جاء في الحديث الصحيح : « **أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون**

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٣٦ .
(٣) تفسير النسفي (٣/ ٢٤٩) .
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٥) .

ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء» [١] .

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الابتلاء صفة لازمة للمؤمن ، حيث قال: « **مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد** » [٢] .

إن سنة الابتلاء جارية في الأمم والدول والشعوب والمجتمعات ولذلك جرت سنة الله بالابتلاء بالدولة العثمانية .

صمد العثمانيون لمحنة أنقرة بالرغم مما عانوه من خلافات داخلية ، إلى أن انفرد محمد الأول بالحكم في عام ١٤١٣م ، وأمكنه لم شتات الأراضي التي سبق للدولة أن فقدتها ، إن إفاقة الدولة من كارثة أنقرة يرجع إلى منهجها الرباني الذي سارت عليه حيث جعل من العثمانيين أمة متفوقة في جانبها العقدي والديني والسلوكي والأخلاقي والجهادي، وبفضل الله حافظ العثمانيون على حماستهم الدينية وأخلاقهم الكريمة [٣] ثم بسبب المهارة النادرة التي نظم بها أورخان وأخوه علاء الدين دولتهما الجديدة وإدارة القضاء المثيرة للإعجاب والتعليم المتواصل لأبناء وشباب العثمانيين وغير ذلك من الأسباب التي جعلت في العثمانيين قوة حيوية كاملة ، فما لبثت هذه الدولة بعد كارثة أنقرة إلا انبعثت من جديد من بين الأنقاض والأطلال وانتعشت وسرى في عروقها ماء الحياة ، وروح الشريعة ، واستأنفت سيرها إلى الأمام في عزم وإصرار حير الأعداء والأصدقاء [٤] .



---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٦٠١) حديث حسن صحيح .

(٢) مسلم شرح النووي ، كتاب القيامة والجنة والنار (١٧/ ١٥١).

(٣) في أصول التاريخ العثماني ، ص٦١ .

(٤) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٧ .

المبحث الخامس

السلطان محمد الأول

ولد السلطان محمد الأول عام (٧٨١هـ / ١٣٧٩م) [١] ، وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد وعرف في التاريخ (بمحمد جلبي).

كان متوسط القامة ، مستدير الوجه ، متلاصق الحاجبين ، أبيض البشرة، أحمر الخدين ، واسع الصدر ، صاحب بدن قوي ، في غاية النشاط وجسورًا ، يمارس المصارعة ، ويسحب أقوى أوتار الأقواس . اشترك أثناء حكمه في ٢٤ حربًا وأصيب بأربعين جرحًا [٢] استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبُعْد النظر وتغلب على إخوته واحدًا واحدًا حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضي سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها [٣] ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية [٤] .

ومما يؤثر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة فإنه لما قهر أمير بلاد القرمان وكان قد استقل عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد أن حنث في يمينه [٥] وكانت سياسته تهدف إلى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل ، ولذلك سالم إمبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطىء البحر الأسود وفي تساليا وصالح البندقية بعد هزيمة أسطوله أمام كليتبولي وقمع الفتن والثورات في آسيا وأوربا وأخضع بعض الإمارات الآسيوية التي أحياها تيمورلنك

---

(١) انظر : أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)،ص٣٣ .

(٢) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص٤١ .

(٣) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٧ .

(٤) انظر : السلاطين العثمانيون ،ص٤١ .

(٥) تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٢٤٩ .

ودانت له بالطاعة والولاء [١] .

وظهر في زمن السلطان محمد شخص يسمى بدر الدين انتحل صفة علماء الدين الإسلامي وكان في جيش موسى أخي السلطان محمد وتولى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ ، وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى ابن بايزيد .

قال صاحب الشقائق النعمانية :

(الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل . . المشهور بابن قاضي سيماونة ولد في قلعة سيماونة في بلاد الروم إحدى قرى أدرنة التي تقع في الجزء الأوروبي من تركيا، كان أبوه قاضيًا لها وكان أيضًا أميرا على عسكر المسلمين (فيها) وكان فتح تلك القلعة على يده أيضًا . . . ولادة الشيخ بدر الدين كانت في زمن السلطان الغازي خداوندكار (مراد الأول) من سلاطين آل عثمان ، ثم أخذ الشيخ العلم في صباه عن والده . . وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى المشتهر بالشاهدي، وتعلم الصرف والنحو عن مولانا يوسف ، ثم ارتحل إلى الديار المصرية، وقرأ هناك مع (أي مزمل) السيد الشريف الجرجاني ، على مولانا مبارك شاه المنطقي المدرس بالقاهرة، ثم حج مع مبارك شاه وقرأ بمكة على الشيخ الزيلعي ، ثم قدم القاهرة ، وقرأ مع السيد الجرجاني على الشيخ أكمل الدين (البايبوري) وقرأ على الشيخ المذكور (أي تعلم وتتلمذ على يد الشيخ بدر الدين) السلطان فرج ابن السلطان برقوق ملك مصر (سلطان مصر المملوكي برقوق).

ثم أدركته (أي الشيخ بدر الدين) الجذبة الإلهية ، والتجأ إلى كنف الشيخ سعيد الأخلاطي الساكن بمصر وقتئذ وحصل عنده ما حصل (أي أصبح مريده) . وأرسله الشيخ أخلاطي إلى بلدة تبريز للإرشاد (الصوفي) حكى أنه لما جاء تيمورلنك تبريز . . . نال (أي بدر الدين) من الأمير المذكور (تيمورلنك) مالاً جزيلاً بالغًا إلى نهايته ، ثم ترك الشيخ الكل، ولحق ببدليس ثم سافر إلى مصر . .

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٧ .

ثم إلى حلب ثم إلى قونية ثم إلى تبـرة من بلاد الروم ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز وهو نصراني) فأسلـم على يدي الشيخ . . . ثم لما تسلطن موسـى من أولاد عثمان الغازي نصـب الشيخ (أي جعل مـن الشيخ بدر الدين) قـاضيًا لعسـكره ثم إن أخا موسى (محمدًا) قتل موسى وحبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة أزنيق) [١] .

وفي أزنيق - وهي مـدينة في تركيا - بدأ الشـيخ بدر الدين محمـود بن إسرائيل يدعـو إلى مذهـبه الفـاسد ، فكان يـدعو إلى المـساواة في الأمـوال ، والأمتـعة ، والأديان، ولا يفرق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة ، فالناس إخوة مهما اختلفت عقائـدهم وأديانهم وهو ما تدعـو إليه الماسونيـة اليهودية ، وانضم إلـى هذه الدعوة الباطلة كـثير من الأغبيـاء والجهلة وأصحاب الأغراض الـدنيئة وأصبح للمـفسد بدر الدين تلاميذ يدعون إلى منهجه ومذهبه ومن أشهر هؤلاء الدعاة شخص يسمى (بير قليجة مصطفى) وآخر يقال: إنه من أصـل يهودي هو (طوره كمال) واليهود دائمًا خلف المؤامرات من زمن النبي ﷺ وحتى عصرنا هذا.

وشاع أمر هذا المذهب الفاسـد وكثر أتباعه وتصدى السلطان محـمد جلبي لهذا المذهب الباطل وأرسل أحد قواده على رأس جيـش كبير لمحاربة بدر الدين وللأسف قتل القائد سـيسمان الذي أرسله محـمد جلبي على يد الخائن (بيـر قليجة) وهزم جيشه وأعـد السلطان محمد جلبـي جيشًا آخر بقيادة وزيـره الأول (بايزيد باشا) ، فحارب (بير قـليجة) وانتصر عليه فـي موقعة (قره بورنو) وبعدها أقـيم حد الحرابة على (بير قليجة مصطفى) امتثالاً لأمر الله [٢] الذي يقول : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

---

(١) انظر: العثمـانيون في التاريخ والحضارة، ص١٣٣ , ١٣٤ نقـله عن الشقائق النعمانـية مخطوط (لا له لي) بالسليمانية رقم ٢٠٧٦.

(٢) انظر : أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)، ص٣٥ .

واستمر الشيخ بدر الدين في غيه وظن أنه سيتمكن من البلاد بسبب ما تمر به من حالة تمزق كامل وفوضى ضربت بأطنابها في كل أرجاء البلاد وكان بدر الدين يقول: (إني سأثور من أجل امتلاك العالم ، وباعتقاداتي ذات الإشارات الغيبية سأقسم العالم بين مريدي بقوة العلم وسر التوحيد ، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم ، وسأحلل - باتساع مشاربي - بعض المحرمات [١] .

وكان أمير الأفلاق (في رومانيا) يدعم هذا المنشق وهذا المبتدع وهذا الزنديق ماديًا وعسكريًا وكان السلطان محمد جلبي لهذه الدعوة الفاسدة بالمرصاد وضيق عليها الخناق ، حتى اضطر بدر الدين أن يعبر إلى منطقة دلي أورمان (في بلغاريا الآن[٢] يقول محمد شرف الدين في مسألة توجه الشيخ بدر الدين إلى دلي أورمان: (إن هذه المنطقة وما يحيط بها من مناطق هي مأوى الباطنية ، وهي منطقة تعج بأتباع ثورة بابا إسحاق التي قامت ضد الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع الهجري ، وأن توجه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكنه من جمع الآلاف المؤلفة من المؤيدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ هذا المكان بالذات) [٣] .

وفي دلي أورمان بدأت المعونات الأوربية تفد إلى الشيخ ، واتسع نطاق الثورة ضد السلطان العثماني محمد الأول ، ووصلت فلول المنشقين أعداء الإسلام الصحيح إلى ما بين ٧ ـ ٨ آلاف مقاتل [٤] .

وكان السلطان محمد الأول يتابع الأمور بحذر ويقظة ولم يكن غافلاً عما يفعله الثوار وقام السلطان بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين ، وكان هذا على رأس جيش عظيم في دلي أورمان .

---

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٤٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص١٤٠ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص١٤٠ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص١٤١ .

اتخذ السلطان محمد من سيروز (في اليونان الآن) مركزًا لقيادته . أرسل السلطان قواته إلى الثوار فهزمتهم ، وتوارى زعيمهم بدر الدين الثائر بعد هزيمته، في منطقة دلي أورمان ، فرارًا من السلطان [١] .

واستطاعت مخابرات السلطان محمد الأول أن تخترق صفوف الثوار وأن تكيد مكيدة محكمة وقع على أثرها زعيم الثوار المبتدع بدر الدين في الأسر[٢] .

وعندما قابل السلطان محمد الأول بدر الدين قال له : ما لي أرى وجهك قد اصفر ؟

أجابه بدر الدين : إن الشمس يا مولاي ، تصفر عندما تقترب من الغروب.

وقام علماء الدولة بمناظرة علمية حرة مع بدر الدين ثم أقيمت محكمة شرعية، وأصدر حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء التي استندت إلى توجيه رسول الله ﷺ: « **من أتاكم وأمركم جميعًا على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه** » [٣] .

إن المذهب الفاسد الذي كان يدعو إليه « بدر الدين » هو نفس مذهب الماسونية اليهودية المعاصرة (القرن الخامس عشر الهجري / العشرون الميلادي) وهو يقوم على إلغاء الحواجز بين أصحاب العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصحاب العقائد الفاسدة، إذ إنه يقول بالأخوة بين المسلمين واليهود والنصارى وعباد البقر والشيوعيين، وهذا يخالف عقيدة الإسلام التي تؤكد أنه لا أخوة بين المسلمين وبين غيرهم من أصحاب العقائد الفاسدة ؛ لأنه كيف يكون هناك أخوة بين من يحاربون الله ورسوله ، وبين المؤمنين الموحدين [٤] .

كان السلطان محمد الأول محبًا للشعر والأدب والفنون ، وقيل : هو أول

---

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٤١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب إذا بويع لخليفتين (٣/ ١٤٨٠) رقم١٨٥٢ .

(٤) انظر : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية) ، ص٣٨ .

سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصرة، وهي عبارة على قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة [(١)] .

وقد أحب الشعب العثماني السلطان محمد الأول وأطلقوا عليه لقب بهلوان (ومعناها البطل) وذلك بسبب نشاطه الجم وشجاعته كما أن أعماله العظيمة ، وعبقريته الفذة التي قاد من خلالها الدولة العثمانية إلى بر الأمان ، كما أن جميل سجاياه وسلوكه وشهامته وحبه للعدل والحق جعل شعبه يحبه ويطلق عليه لقب جلبي أيضًا وهو لقب تشريف وتكريم فيه معنى الشهامة والرجولة.

حقيقة إن بعض حكام آل عثمان قد فاقوه شهرة ، إلا أن بالإمكان اعتباره من أنبل حكام العثمانيين ـ فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته واعتبره المؤرخون العثمانيون [(٢)] بمثابة القبطان الماهر الذي حافظ على قيادة سفينة الدولة العثمانية حين هددتها طوفان الغزوات التترية، والحروب الداخلية، والفتن الباطنية.

*** وفاته :**

بعد أن بذل السلطان محمد الأول قصارى جهده في محو آثار الفتن التي مرت بها الدولة العثمانية وشروعه في إجراء ترتيبات داخلية تضمن عدم حدوث شغب في المستقبل وبينما كان السلطان مشتغلاً بهذه المهام السليمة شعر بدنو أجله دعى الباشا بايزيد وقال له : (عينت ابني مراد خليفة لي فأطعه وكن صادقًا معه كما كنت معي. أريد منكم أن تأتونني بمراد الآن لأنني لا أستطيع أن أقوم من الفراش بعد ، فإن وقع الأمر الإلهي قبل مجيئه حذاري أن تعلنوا وفاتي حتى يأتي)[(٣)].

وفاجأه الموت في سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) في مدينة أدرنة وأسلم روحه لخالقه وعمره ٤٣ سنة.

(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص١٥٢ .
(٢) انظر : في أصول التاريخ العثماني ،ص٦٢ .
(٣) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص٤١ .

وخوفًا من حصول مـا لا تحمد عقباه لو عُلم موت السلـطان محمد الأول اتفق وزيراه إبراهيم وبايزيد على إخفاء موته على الجند حتى يصل ابنه مراد الثاني فأشاعا أن السلطـان مريض وأرسلا لابنه فـحضر بعـد واحد وأربعين يومًـا واستلم مقـاليد الحكم[١] .

ولقد كـان السلطان محـمد الأول محبًـا للسلام والعلـم والفقهاء ولـذلك نقل عاصمة الدولة من أدرنة (مدينة الغزاة) إلى بروسة (مدينة الفقهاء) [٢] وكان على خلـق رفيـع، وحزم مـتين ، وحلـم فريـد ، وسيـاسـة فذة في مـعـاملة الأعـداء والأصدقاء.



(١) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص١٥٢ .

(٢) انظر : في أصول التاريخ العثماني ،ص٦٣ .

المبحث السادس

مراد الثاني

تولى السلطان مراد الثاني أمر الدولة بعد وفاة أبيه (محمد جلبي) عام (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) ، وكان عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة وكان محبًا للجهاد في سبيل الله ، والدعوة إلى الإسلام في ربوع أوروبا [١] .

كان معروفًا لدى جميع رعيته بالتقوى ، والعدالة والشفقة [٢] ، استطاع السلطان مراد أن يقضي على حركات التمرد الداخلية التي قام بها عمه مصطفى والتي كانت تدعم من قبل أعداء الدولة العثمانية وكان الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني خلف الدسائس والمؤامرات والمتاعب التي تعرض لها السلطان مراد، فهو الذي دعم عم السلطان مراد الذي اسمه مصطفى بالمساعدات حتى استطاع أن يحاصر مدينة غاليبولي ابتغاء انتزاعها من السلطان واتخاذها قاعدة له إلا أن السلطان مراد قبض على عمه وقدمه للمشنقة ، ومع ذلك فقد مضى الإمبراطور مانويل الثاني يكيد للسلطان، واحتضن شقيقًا لمراد الثاني ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة نيقيا في الأناضول ، وسار إليه مراد واستطاع أن يقضي على قواته واضطر خصمه للاستسلام ثم قُتل ، ومن ثم صمم السلطان مراد أن يلقن الإمبراطور درسًا عمليًا ، فأسرع باحتلال سلولنيك ، فهاجمها ودخلها عنوة في مارس ١٤٣١م(٨٣٣هـ) ، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد يوجه الضربات الموجعة لحركات التمرد في بلاد البلقان، وحرص على تدعيم الحكم العثماني في تلك الديار ، واتجه الجيش العثماني نحو الشمال لإخضاع إقليم ولاشيا وفرض عليه جزية سنوية ، واضطر ملك الصرب الجديد(ستيف لازار ميتش) إلى الخضوع للعثمانيين والدخول تحت حكمهم وجدد

---

(١) انظر : أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ، ص٣٨ .

(٢) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص٤٣ .

ولاءه للسلطان، واتجه جيش عثماني نحو الجنوب، حيث قام بتوطيد دعائم الحكم العثماني في بلاد اليونان . ولم يلبث السلطان أن واصل جهاده الدعوي وقام بالقضاء على العوائق في كل من ألبانيا والمجر .

واستطاع العثمانيون أن يفتحوا ألبانيا عام (٨٣٤هـ / ١٤٣١م) وركزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد . أما شمالي ألبانيا ، فقد خاض العثمانيون فيه جهادًا مريرًا ، وتمكن الألبانيون الشماليون من القضاء على جيشين عثمانيين في جبال ألبانيا، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيتين متعاقبتين كان يقودهما السلطان مراد بنفسه، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة أثناء عملية الانسحاب ، ووقفت الدول النصرانية خلف الألبان لدعمهم ضد العثمانيين وخصوصًا من حكومة البندقية التي كانت تدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الإقليم الهام بشاطئيه وموانئه البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجي، وأنهم في استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بخر مغلق هو بحر الأدرياتيك . وهكذا لم يشهد السلطان مراد الثاني استقرارًا للحكم العثماني في ألبانيا [١] .

وأما ما يتعلق بجبهة المجر ، فقد استطاع العثمانيون في عام (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) أن يهزموا المجريين ويأسروا منهم سبعين ألف جندي وأن يستولوا على بعض المواقع، ثم تقدم لفتح بلغراد عاصمة الصرب ، ولكنه أخفق في محاولته وسرعان ما تكون حلف صليبي كبير باركه البابا واستهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوربا كلية . وشمل الحلف البابوية والمجر وبولندا والصرب وبلاد الأفلاق وجنوة والبندقية والإمبراطورية البيزنطية ودوقية برجنديا ، وانضمت إلى الحلف أيضًا كتائب من الألمان والتشيك. وأعطيت قيادة قوات الحلف الصليبي إلى قائد مجري قدير هو يوحنا هنيادي . وقد قاد هنيادي القوات الصليبية البرية وزحف جنوبًا واجتاز الدانوب وأوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين عام(٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م) ، واضطر العثمانيون إلى طلب الصلح [١] وأبرمت معاهدة صلح لمدة عشر سنوات في

(١) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٤٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٤٦ .

« سيزجادن» وذلك في شهر يوليو عام ١٤٤٤م/٨٤٨هـ تنازل فيها عن الصرب واعترف بجورج برانكوفيتش أميرًا عليها . كما تنازل السلطان مراد عن الأفلاق للمجر ، وافتدى زوج ابنته « محمود شلبي » الذي كان قائدًا عامًا للجيوش العثمانية، بمبلغ ٦٠ ألف دوقية ، وقد حررت هذه المعاهدة باللغتين العثمانية، والمجرية وأقسم « لاديسلاسي » ملك المجر على الإنجيل كما أقسم السلطان مراد بالقرآن على أن تراعي شروط المعاهدة بذمة وشرف.

وحين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الأوروبيين عاد إلى الأناضول وفجع بموت ابنه الأمير علاء واشتد حزنه عليه وزهد في الدنيا والملك ونزل عن السلطنة لابنه محمد وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره ، ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأي والنظر من رجال دولته ثم ذهب إلى مغنيسيا في آسيا الصغرى ليقضي بقية حياته في عزلة وطمأنينة ويتفرغ في هذه الخلوة إلى عبادة الله والتأمل في ملكوته بعد أن اطمأن إلى استتباب الأمن والسلام في أرجاء دولته ، ولم يستمتع السلطان طويلاً بهذه الخلوة والعبادة [(١)] حيث قام الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه بالدعوة إلى نقض العهود مع العثمانيين وطردهم عن أوربا ، خصوصًا وأن العرش العثماني قد تركه السلطان مراد لابنه الفتى الذي لا خبرة له ولا خطر منه وقد اقتنع البابا أوجين الرابع بهذه الفكرة الشيطانية [(٢)] وطلب من النصارى ، نقض العهد ، ومهاجمة المسلمين وبين للتصارى أن المعاهدة التي عقدت مع المسلمين باطلة لأنها عقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح في الأرض وكان الكاردينال سيزاريني عظيم النشاط دائم الحركة لا يكل عن العمل ، يجد ويسعى للقضاء على العثمانيين ولذلك كان يزور ملوك النصارى وزعماءهم ويحرضهم على نقض المعاهدة مع المسلمين ويقنع كل من يعترض على نكث المعاهدة ويقول له : إنه باسم البابا يبرئ ذمتهم من نكثها ويبارك جنودهم وأسلحتهم ، وعليهم أن يتبعوا طريقه فإنه طريق المجد والخلاص ومن نازعه ضميره بعد ذلك وخشي الإثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه [(٣)] .

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٤٢ ، ٤٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٤٣ .

(٣) انظر : محمد الفاتح ، ص٤٤ .

لقد نقض النصارى عهودهم ، وحشدوا الجيوش لمحاربة المسلمين ، وحاصروا مدينة « فارنا » البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود ، والتي كانت قد تحررت على أيدي المسلمين ، ونقض العهود هو سَمْتُ ظاهر لأعداء هذا الدين ، ولذلك أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين قتالهم يقول سبحانه : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة : ١٢] .

لا عهود ، ولا مواثيق يرعونها ،كما هو طابعهم دائمًا . إنهم لا يتورعون عن مهاجمة أي أمة ، أي إنسان يلمحون فيه ضعفًا ، يقتلون ويذبحون [١] وصدق الله القائل في تصويرهم :

﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة : ١٠] .

وعندما تحرك النصارى وزحفوا نحو الدولة العثمانية وسمع المسلمون في أدرنة بحركة الصليبيين وزحفهم انتابهم الفزع والرعب وبعث رجال الدولة إلى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر وخرج السلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضد الخطر الصليبي . واستطاع مراد أن يتفق مع الأسطول الجنوي لينقل أربعين ألفًا من الجيش العثماني من آسيا إلى أوروبا تحت سمع الأسطول الصليبي وبصره في مقابل دينار لكل جندي .

وأسرع السلطان مراد في السير فوصل وارنة في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون .

وفي اليوم التالي نشبت المعركة بين الجيشين النصراني والإسلامي وكانت عنيفة حامية وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها أعداؤه على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان وليزيد حماس جنده [٢] .

واقتتل الفريقان ، ودارت بينهما معركة رهيبة كاد يكون فيها النصر للنصارى

---

(١) انظر : أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ، ص٤١ .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، د . سالم الرشيدي ، ص٤٥ .

نتيجة حميتهم الدينية وحماسهم الزائد إلا أن تلك الحمية والحماس الزائد اصطدم بالروح الجهادية لدى العثمانيين ، والتقى الملك « لاديسلاس» ناقض العهود مع السلطان مراد الوفي بالعهود وجهًا لوجه واقتتلا ، ودارت بينهما معركة رهيبة، تمكن السلطان المسلم من قتل الملك المجري النصراني ، فقد عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من على ظهر جواده فأسرع بعض المجاهدين وجزوا رأسه ورفعوه على رمح مهللين مكبرين وفرحين [١] وصاح أحد المجاهدين في العدو : « أيها الكفار هذا رأس ملككم » وكان لذلك المنظر أثر شديد على جموع النصارى، فاستحوذ عليهم الفزع والهلع ، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية ، بددت شملهم وهزموهم شر هزيمة، وولى النصارى مدبرين يدفع بعضهم بعضا ولم يطارد السلطان مراد عدوه واكتفى بهذا الحد من النصر وإنه لنصر عظيم [٢] .

كانت هذه المعركة في سهول قوصوه في ١٧ أكتوبر ١٤٤٨م (٨٥٢هـ) واستمرت المعركة ثلاثة أيام وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين . وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين [٣] .

ولم تفارق السلطان مراد زهادته في الدنيا والملك فنزل على العرش مرة أخرى لابنه محمد وعاد إلى عزلته في مغنيسيا كما يعود الأسد المنتصر إلى عرينه.

ولقد ذكر لنا التاريخ مجموعة من الملوك والحكام الذين نزلوا عن عروشهم وانقطعوا عن الناس وأبهة الملك إلى العزلة ، وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش ولكن لم يذكر لنا أحد منهم نزل عن العرش مرتين غير السلطان مراد، فإنه لم يكد يذهب إلى معتزله بآسيا الصغرى حتى ثار الإنكشارية في أدرنة وشغبوا وهاجوا وماجوا وتمردوا وطغوا وأفسدوا وكان السلطان محمد فتى يافعًا حديث السن

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، د.عبد السلام عبد العزيز ، ص٢٢ .

(٢) انظر : محمد الفاتح ،ص٤٦ .

(٣) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٤٧ .

وخشي بعض رجـال الدولة أن يستفحل الأمـر ويعظم الخطر ويتفاقم الـشر، وتسوء العاقبة فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليتولى الأمر بنفسه [١] وجاء السلطان مراد وقبض على زمام الأمر وخضع له الإنكشارية وأرسل ابنه مـحمد إلى مغنيسيا حاكمًا عليها بالأناضول ، وبقى السلطان مراد الثـاني على العرش العثماني إلى آخر يوم في حياته ، وقد قضاها في الغزو والفتح [٢] .

أولاً : مراد الثاني وحبه للشعراء والعلماء وفعل الخير :

يقول محمد حرب :

(مراد الثاني وإن كـان مقلاً وكان ما لدينـا من شعره قليلاً لصـاحب فضل على الأدب والشعر لا يـجحد ، لأن نعمة حلـت على الشعراء الذين كـان يدعوهم إلى مجلـسه يومين في كـل أسبوع ليـقولوا ما عنـدهم ، ويأخذون بأطـراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السلطان ، فيستحـسن أو يستهجن ، ويختار أو يطرح ، وكثيراً ما كان يسد عوز المعـوزين منهم بنائلة الغمر أو بإيجاد حرفـة لهم تدر الرزق عليهم حتى يفرغوا من هموم العيش ويتوفروا على قول الشعر ، وقد أنجب عصره كثيرًا من الشعراء) [٣] .

لقد حول القصـر الحاكم إلى نوع من الأكاديمية العلمـية ووصل به الأمر أن كان الشعراء يرافقونه في جهاده [٤] .

ومن أشعاره : (تعالوا نذكر الله لأننا لسنا بدائمين في الدنيا) [٥] .

كان سلطانًا عالمًـا عاقلاً عادلاً شجاعًا ، وكان يرسل لأهالـي الحرمين الشريفين وبيت المقدس من خاصة ماله في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، وكان يعتني

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٤٧ .
(٢) السلطان محمد الفاتح ، ص٢٣ .
(٣) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٤٦ .
(٤) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٤٦ .
(٥) السلاطين العثمانيون الكتاب المصور ، ص٤٣ .

بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء ، مهد الممالك ، وأمن السبل ، وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين [١] وقال عنه يوسف آصاف : (كان تقيًا صالحًا ، وبطلاً صنديدًا ، محبًا للخير ، ميَّالاً للرأفة والإحسان) [٢] .

ثانيًا : وفاته ووصيته :

قال صاحب النجوم الزاهرة : في وفيات عام ٨٥٥هـ في مراد الثاني :

(وكان خير ملوك زمانه شرقًا وغربًا ، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد ، وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وغزا عدَّة غزوات ، وفتح عدة فتوحات ، وملك الحصون المنيعة ، والقلاع والمدن من العدوِّ المخذول .

على أنه كان منهمكًا في اللذات التي تهواها النفوس ، ولعل حاله كقول بعض الأخيار - وقد سئل عن دينه -

فقال : أمزقه بالمعاصي وأُرقعه بالاستغفار ، فهو أحق بعفو الله وكرمه ، فإن له المواقف المشهورة ، وله اليد البيضاء في الإسلام ونكاية العدو ، حتى قيل عنه: إنه كان سياجًا للإسلام والمسلمين - عفا الله عنه - وعوض شبابه الجنة . . .) [٣] .

توفي السلطان في قصر أدرنة عن عمر يناهز ٤٧ عامًا وبناء على وصيته رحمه الله دفن في جانب جامع مرادية في بورصة .

ووصى بأن لا يبنى على قبره شيء ، وأن يعمل أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفاظ لقراءة القرآن الكريم ، وأن يدفن في يوم الجمعة فنفذت وصيته [٤] .

وترك في وصيته شعرًا ، بعد أن كان قلقًا يخشى أن يدفن في قبر ضخم ،

---

(١) انظر : تاريخ السلاطين آل عثمان للقرماني ، ص٢٥ .

(٢) تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص٥٥ .

(٣) النجوم الزاهرة (١٦/٣) لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري.

(٤) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص٤٣ .

وكان يريد ألا يبنى شيء على مكان دفنه ، فكتبها شعرًا ليقول : فليأت يوم يرى الناس فيه ترابي [١] .

لقد قام السلطان مراد ببناء جوامع ومدارس ، وقصورًا وقناطر فمنها جامع أدرنة ذو ثلاث شرف وبنى بجانب هذا الجامع مدرسة وتكية يطعم فيها الفقراء والمساكين[٢] .

* * *

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٤٦ .

(٢) انظر : السلاطين العثمانيون ، ص٤٣ .

❖ الفصل الثاني ❖

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

المبحث الأول

السلطان محمد الفاتح

هو السلطان محمد الثاني (٨٣١هـ ـ ١٤٨١م) يعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان يلقب بالفاتح وأبي الخيرات . حكم ما يقرب من ثلاثين عامًا كانت خيرًا وعزة للمسلمين [(١)] . تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في ١٦ محرم عام ٨٥٥هـ الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١م وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيرًا في التاريخ بلقب محمد الفاتح ، لفتحه القسطنطينية . وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة ، واهتم كثيرًا بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف ، وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند ، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر . وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال وطور البلاط السلطاني وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدم إلى الأمام وبعد أن قطع أشواطًا مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها ، ولقد ساعدته

---

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٥٣ .

عوامل عدة في تحقيق أهدافه ، منها الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى ، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطقها ومدنها ، ولم يكتف السلطان محمد بذلك؛ بل إنه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن ، والتي طالما اعتزت بها الإمبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة ، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية [١] .

أولاً : فتح القسطنطينية :

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية ، وقد أسست في عام ٣٣٠ م على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول [٢] ، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها : « لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها» [٣] ، ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم ، وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها [٤] عندما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع ، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف ، من ذلك : ما حدث أثناء غزوة الخندق[٥] ، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعًا في أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ : « **لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش** » [٦] .

---

(١) انظر : قيام الدولة العثمانية ، ص٤٣ .

(٢) انظر : أوروبا في العصور الوسطى ، سعيد عاشور ، ص٢٩ .

(٣) فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، د. محمد مصطفى، ص٣٦ ـ ٤٦ .

(٤) المجتمع المدني (الجهاد ضد المشركين) ، د. أكرم ضياء العمري ، ص١١٥ .

(٥) أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥) .

(٦) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣٣٥).

لذلك فـقد امتدت إليـها يد القـوات المسلمة المجـاهدة منذ أيام معـاوية بن أبي سفيان في أولى الحـملات الإسلامية عليها سنة ٤٤هـ ولم تـنجح هذه الحملة ، وقد تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة .

كما قـامت الدولة الأموية بمحاولـة أخرى لفتح القسـطنطينية وتعـد هذه الحملة أقوى الحمـلات الأموية عليهـا ، وهي تلك الحملـة التي تمت في أيام سليـمان بـن عـبد الملك سنة ٩٨هـ [١] .

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينيـة حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية ، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها ، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد [٢] سنة ١٩٠هـ .

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة ، التي امتـدت سلطتها إلى آسيا الصغرى . كمـا أن زعيمها ألب أرسلان (٤٥٥ـ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣ ـ١٠٧٢م) اسـتطاع أن يـهزم إمـبـراطور الروم ديمونـوس في موقـعة ملاذ كـرد عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٠م ثم أسـره وضربه وسجـنه وبعد مـدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقي ، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من إمبراطـورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية وبعـد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلـجوقية كان منها دولة سلاجقة الـروم في آسيا الصغرى والتي اسـتطاعت مد سلطـتها إلى سواحـل بحر إيجة غـربًا وإضعاف الإمبـراطورية الرومانية .

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشـر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم [٣] وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسـطنطينية وكانت البداية حين جرت

(١) ابن خلدون العبر (٣/ ٧٠) ، تاريخ خليفة بن خياط ، ص٣١٥ .

(٢) خليفة بن خياط ، تاريخـه ، ص٤٥٨ ، تاريخ الطبري (١٠/ ٦٩) ، ابن الأثير الكامل (٦/ ١٨٥، ١٨٦).

(٣) قيام الدولة العثمانية ، ص٤٦ .

محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد « الصاعقة » الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٣م [١] ، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلمًا إلى المسلمين ، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوربية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية ، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيث فسادًا، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية ، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة، والتي أسر فيها بايزيد (الصاعقة) ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة١٤٠٢م [٢] وكان نتيجة ذلك أن تفككت الدولة العثمانية مؤقتًا ، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين .

وما أن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد ، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة . ٨٢٤هـ - ٨٦٣هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة ، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان [٣] ، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله في هدفه الذي حرص عليه ، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد .

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة ، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية ؛ بل ويعلم بما سبقها من محاولات

---

(١) تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص١٨ .

(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، د . عبد العزيز العمري ، ص٣٥٨.

(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٥٨ .

متكررة في العصور الإسلامية المختلفة ، وبالتالي فمنذ أن ولي السلطنة العثمانية سنة٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م [١] كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر في فتحها، ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام ، ولذلك نشأ على حب الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتصف بالتقى والورع ، ومحبا للعلم والعلماء ومشجعًا على نشر العلوم ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التي تلقها منذ الصغر ، بتوجيهات من والده، وجهود الشخصيات العلمية القوية التي أشرفت على تربيته ، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور ومجاهدتهم لأنفسهم ، ممن أشرفوا على رعايته [٢] .

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الرباني « أحمد بن إسماعيل الكوراني » مشهودًا له بالفضيلة التامة ، وكان مدرسه في عهد السلطان « مراد الثاني » والد « الفاتح » . وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني ـ الفاتح ـ أميرًا في بلدة « مغنيسيا » وقد أرسل إليه والده عددًا من المعلمين ولم يمتثل أمرهم ولم يقرأ شيئًا ، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم ، فطلب السلطان المذكور، رجلاً له مهابة وحدة ، فذكروا له المولى « الكوراني » ، فجعله معلما لولده وأعطاه قضيبًا يضربه بذلك إذا خالف أمره . فذهب إليه ، فدخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام ، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا، حتى خاف منه السلطان محمد خان ، وختم القرآن في مدة يسيرة . . » [٣] .

هذه التربية الإسلامية الصادقة ، وهؤلاء المربون الأفاضل، ممن كان منهم بالأخص هذا العالم الفاضل ، ممن يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع أو لا ينحني للسلطان ، ويخاطبه باسمه ، ويصافحه ولا يقبل يده ؛ بل السلطان

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص٣٥٩ .

(٢) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون ، ص٤٢ .

(٣) كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، ص٥٢ نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية، ص٤٣ .

يقبل يده . من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح ، وأن يكون مسلمًا مؤمنًا ملتزمًا بحدود الشريعة ، مقيدًا بالأوامر والنواهي معظمًا لها ومدافعًا عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته ، تقيا صالحًا يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين (١) .

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما :

١ ـ مضاعفة حركة الجهاد العثمانية .

٢ ـ الإيحاء دومًا لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» (٢) لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور (٣) .

ثانيًا : الإعداد للفتح :

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهودًا كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد (٤) وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة ، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادًا معنويًا قويًا وغرس روح الجهاد فيهم ، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك ، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير ، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون ، ص٤٣ .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥) .

(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٥٩ .

(٤) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد بك، ص١٦١ .

أوامر الله.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة (روملي حصار) في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الأسيوي ، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد بها إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع ، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة ، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ مترًا وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور إلى غربه وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة [١] .

أ ـ اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة :

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية ، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتمامًا خاصا منه حيث أحضر مهندسا مجريًا يدعى (أوربان) كان بارعًا في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانات المالية والمادية والبشرية ، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور ، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه ، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها [٢] .

ب ـ الاهتمام بالأسطول :

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية ، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود

(١) انظر : سلاطين آل عثمان ، ص٢٦ .

(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٦١ .

قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة [١] .

ج ـ عقد معاهدات :

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد ، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبي) ، كما عقد معاهدات مع (المجد) و(البندقية) وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة ، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية ، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية [٢] مشاركة لبني عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين .

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه ، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه ، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره[٣] ولكن السلطان كان عازمًا على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه ، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد ، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له ، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك ، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية ، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٩٠ ، سالم الرشيدي .

(٢) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص٥٨ .

(٣) انظر : فتح القسطنطينية ، محمد صفوت، ص٦٩ .

توحيد الكنيستين ، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة ، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك ، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس : (إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية) (١) .

ثالثًا : الهجوم :

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جبهات ، مضيق البسفور ، وبحر مرمرة ، والقرن الذهبي الذي كان محميًا بسلسلة ضخمة جدًا تتحكم في دخول السفن إليه ، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي ، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه ٦٠ قدمًا ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدمًا وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدمًا ، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدمًا وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند (٢) ، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصينًا ، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية ، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها ، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ، ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها ، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها (٣) ، وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية ، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية ، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل

---

(١) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ص٨٩ .

(٢) انظر : سلاطين آل عثمان ، ص٢؛ ومحمد الفاتح ص٩٦ .

(٣) انظر : محمد الفاتح ، سالم الرشيدي ص٨٢ ؛ فتح القسطنطينية محمد صفوت ص٥٧ .

١٤٥٣م ، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي ، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة ، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء ، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك ، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين ، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء (١) .

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب (٢) .

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات ، كما أقام الفاتح جيوشًا احتياطية خلف الجيوش الرئيسية ، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار ، ومن أهمها: المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طب قابي ، كما وضع فرقًا للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة ، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخوله ؛ بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب ، واستطاع الأسطول العثماني أن يستولي على جزر الأمراء في بحر مرمرة (٣) .

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار ، وأحكموا التحصينات وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة ، ولم يخل الأمر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الأيام الأولى للحصار ، وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها

(١) انظر : سلاطين آل عثمان ص٢٤ ، ٢٥ .

(٢) انظر : الفتوحات الإسلامية عبر العصور ، ص٣٦٤ .

(٣) انظر : محمد الفاتح ، ص٩٨ ؛ العثمانيون والبلقان ، ص٨٩ .

خصوصًا من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب .

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين ، وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة ، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها .

ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أوروبا ووصلت إمدادات من جنوة مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوي جوستنيان يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين ، وقد عين قائدها جستيان قائدًا للقوات المدافعة عن المدينة (١) .

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه ، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة (٢) .

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى ، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر ، ويشجعون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة ، وأخذ الإمبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة آيا صوفيا لهذا الهدف (٣) .

رابعًا : مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين :

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح وصمد

---

(١) انظر : العثمانيون والبلقاء ، د . علي حسون ، ص٩٢ .
(٢) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١٢٠ .
(٣) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١٠٠ .

البيزنطيون بقيادة قسطنطين صمودًا بطوليًا في الدفاع وحاول الإمبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة ، فقدم عروضًا مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة ، أو غير ذلك من العروض التي قدمها، ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالبًا تسليم المدينة تسليمًا [١] ، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى ، وكان مضمون الرسالة : (فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضًا) [٢] .

كان الحصار لا يزال ناقصًا ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمرًا دون هوادة حيث أظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة ، وبسالة نادرة ، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي ، وفي يوم ١٨ أبريل [٣] تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار ، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة ، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها ، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستنيان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار ، واشتد القتال بين الطرفين ، وكانت الثغرة ضيقة وكثرة السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم[٤] .

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم

---

(١) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص٥٨ .
(٢) محمد الفاتح ، عبد السلام فهمي ، ص٩٢ .
(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٦٧ .
(٤) انظر : محمد الفاتح ، عبد السلام فهمي ، ص١٢٣ .

السلسلة الحاجزة عنه ، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة ، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعًا من صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها ، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها [(١)] .

خامسًا : عزل قائد الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح :

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج ، حيث بذلت السفن الإسلامية جهودًا كبيرة لمنعها ، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له : (إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها ، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حيًا) [(٢)] لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها ، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضبًا شديدًا فعزل قائد الأسطول [(٣)] بعد ما رجع إلى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمد الفاتح قائد الأسطول بالطه أوغلي واتهمه بالجبن ، وتأثر بالطه أوغلي لهذا وقال :

(إني أستقبل الموت بجنان ثابت ، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة . لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة ، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة) [(٤)] .

أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر ، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه ، وجعل مكانه حمزة باشا [(٥)] .

---

(١) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٦٨ .
(٢) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١٠١ .
(٣) انظر : مواقف حاسمة ، محمد عبد الله عنان ، ص١٨٠ .
(٤) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١٠٣ .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص١٠٣ .

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبالطه أوغلي بأعلى صوته : يا قبطان !يا قبطان ! ويلوح له بيده ، وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم دون أن يؤثروا في السفن تأثيرًا قويًا [١] .

كانت للهزائم البحرية للأسطول العثماني دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها ، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب ، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي ، خصوصًا وأن الأسوار من ناحية القرن الذهبي متهاوية ، وبالتالي سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها [٢] .

سادسًا : عبقرية حربية فذة :

لاحت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش إلى القرن الذهبي ، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين المينائين مبتعدًا عن حي غلطة خوفًا على سفنه من الجنويين ، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضًا مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهادًا وتلالاً غير ممهدة .

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته ، وحدد لهم مكان معركته القادمة ، فتلقى منهم كل تشجيع ، وأعربوا عن إعجابهم بها .

بدأ تنفيذ الخطة ، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في

(١) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١٠٣ .

(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٦٩ .

ساعات قليلة وأتي بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم ، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها ، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة ، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن (١) .

وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال ، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي ، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو ، بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيدًا عن أنظار العدو ومراقبته(٢) .

كان هذا العمل عظيمًا بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل معجزة من المعجزات تجلى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة ، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة ، لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ما تم . لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة .

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة ودهشة . ويرجع الفضل في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ثم إلى همة السلطان وذكائه المفرط ، وعقليته الجبارة ، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيين ، وتوفر الأيدي العاملة التي قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط .

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية ، وهتافاتهم المتصاعدة ، وأناشيدهم الإيمانية

---

(١) انظر : السلطان محمد الفاتح ، عبد السلام فهمي ، ص١٠٠ .
(٢) الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧٠ .

العالية [١]، في القرن الذهبي ، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي ، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين [٢]، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: (ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر) [٣] .

ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم ، وانتشرت شائعة تقول : « ستسقط القسطنطينية عندما ترى السفن تمخر اليابسة » [٤] وكان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ إنها كانت أضعف الأسوار ، ولكنها في السابق تحميها المياه ، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى [٥] .

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القرن الذهبي إلا أن محاولاته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أحبطوا كل الخطط والمحاولات .

واستمر العثمانيون في دك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع ، وحاولوا تسلق أسوارها ، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما

---

(١) انظر : السلطان محمد الفاتح ، عبد السلام فهمي ، ص١٠٢.
(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧٠ .
(٣) تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزنتونا ، ص١٣٥ .
(٤) انظر : محمد الفاتح ، ص١٠٦ .
(٥) انظر : محمد الفاتح ، ص١٠٦ .

زاد في مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس [١].

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تمامًا [٢] .

سابعًا : اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونيه :

عقد الملك قسطنطين ومعاونوه ومستشاروه ورجال النصرانية في المدينة اجتماعًا، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدات من الأمم المسيحية، والدول الأوروبية ، ولعل تأتي الجيوش النصرانية ، فيضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم ، ولكنه رفض هذا الرأي وأصر على أن يقاوم إلى آخر لحظة ولا يترك شعبه في المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحدًا، وأنه يعتبر هذا واجبه المقدس وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبدًا واكتفى بإرسال وفود تمثله إلى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة [٣] ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الخيبة وكانت الأجهزة الاستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وما حولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها .

ثامنًا : الحرب النفسية العثمانية :

ضاعف السلطان محمد الثاني الهجوم على الأسوار وجعله مركزًا وعنيفًا ، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضًا لإضعاف العدو ، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفاني ، وكان أكثر ما يرعب جنود الإمبراطور قسطنطين صيحاتهم وهي تشق عنان السماء وتقول : (الله أكبر الله أكبر) فتنزل عليهم

---

(١) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧١ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٣٧١ .
(٣) انظر : محمد الفاتح ، ص١١٦ .

كالصواعق المدمرة [١] .

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة ، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت إحدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال ، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها ، وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلو الأخرى وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهارًا من أجل إنهاك قوى المحاصرين ، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة ، وأعصابهم متوترة مجهودة تثور لأي سبب، وأصبح كل واحد من الجنود ينظر إلى صاحبه ويلاحظ على وجهه علامات الذل والهزيمة والفشل ، وشرعوا يتحدثون علنا عن طرق النجاة والإفلات بأرواحهم وما يتوقعونه من العثمانيين إذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

واضطر الإمبراطور قسطنطين إلى عقد مؤتمر ثان ، اقترح فيه أحد القادة مباغتة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح ، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجومًا شديدًا مكثفًا على وادي ليكونس ، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه ، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم إلى مكان القتال ، واستمر القتال إلى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون [٢] .

وكان السلطان محمد ـ رحمه الله ـ يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار ، وحرب الأعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو [٣] .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص١٠٦ .
(٢) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ١٠٨ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص١٠٨ .

ففي المراحل المتقدمة من الحصار لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج ، فأسرع الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض ، للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا ، حتى إذا وصل العثمانيون إلى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا ، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم ، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة ، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا [١] .

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين ، فعاودوا حفر أنفاق أخرى ، وفي مواضع مختلفة ، من المنطقة الممتدة بين (أكرى فبو) وشاطىء القرن الذهبي وكانت مكانًا ملائمًا للقيام بمثل هذا العمل ، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون أن هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون ، وكثيرًا ما كان يخيل لهم أن الأرض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملؤون المدينة ، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة ، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون : (هذا تركي ، .... ، هذا تركي) ويجرون هربًا من أشباح يحسبونها أنها تطاردهم ، وكثيرًا ما كان يحدث أن تتناقل العامة الإشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رآها أحدهم بعيني رأسه وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم (سكارى وما هم بسكارى) ، فريق يجري ، وفريق يتأمل السماء ، ومجموعة تتفحص الأرض ، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في

(١) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧٢ .

عصبية زائدة وفشل ذريع .

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً ، فإن هذه الأنفاق التي حفروها قد أودت بحياة كثير منهم ، فماتوا اختناقًا واحتراقًا في باطن الأرض ، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الروم ، فقطعت رؤوسهم وقذف بها إلى معسكر العثمانيين (١) .

مفاجأة عسكرية عثمانية :

لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار ، وبارتفاع أعلى من الأسوار ، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها ، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطلْ برأسه من فوق الأسوار ، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس ، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار ، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتل شديد واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك ، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت به ، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيرات فاحترقت ، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين ، وامتلأ الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب (٢) .

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ما وقع : غدًا نصنع أربعًا أخرى (٣) .

(١) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١١٠ .
(٢) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١٤٤ .
(٣) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٢٢ .

زاد الحصار وقوي واشتد حتى أرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين ، فعقد زعماء المدينة اجتماعًا ٢٤ مايو داخل قصر الإمبراطور وبحضوره شخصيًا ، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط ، ولكن الإمبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات .

وأخذت الإشاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها ، وكان من أقواها عليهم ما حدث في يوم ١٦ جمادى الأولى الموافق ٢٥ مايو ، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم) ، وأخذوا يتجولون به في ضواحي المدينة ، يدعونه ويتضرعون إلى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم ، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم ، فرأوا في ذلك شؤمًا ونذيرًا بالخطر ، وتأثر سكان المدينة وخصوصًا المدافعين عنها ، وحدث في اليوم التالي ٢٦ مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق ، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشاءم البطريق ، وذهب إلى الإمبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين ، فتأثر الإمبراطور حتى أغمى عليه [١] .

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في دك الأسوار والتحصينات ، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض ، التي يئس المدافعون من إزالتها وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة ، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد [٢] .

تاسعًا : المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين :

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط ، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام ؛ فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة

---

(١) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١١٨ .

(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧٥ .

دماء ، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان [١] ، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها ، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر ، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت ، فمال الإمبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة ، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها : (إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها) [٢] ، فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال: (حسنًا عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر) [٣] .

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحًا إلى تكثيف الهجوم وخصوصًا القصف المدفعي على المدينة ، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام ، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري أوربان الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع ، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون ، وقد نجح الفنيون في ذلك ، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى ، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع [٤] .

عاشرًا : السلطان محمد الفاتح يعقد اجتماعًا لمجلس الشورى :

عقد السلطان محمد الفاتح اجتماعًا ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء ، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكل صراحة دون

---

(١) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١١٩ .

(٢) محمد الفاتح ، عبد السلام فهمي ، ص١١٦ .

(٣) الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص٣٧٦ .

تردد ، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة ، إلى غير ذلك من المبررات التي طرحها ، وكان متهمًا بمواطئة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم [1] ، وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها ، كما أشار إلى تحمس الجند لإتمام الفتح ، وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى (زوغنوش باشا) وهو من أصل ألباني كان نصرانيًا فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوروبية على السلطان [2] .

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت : (ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز في قعدته وصاح في لغة تركية تشوبها لكنة أرناؤوطية : حاشا وكلا أيها السلطان ، أنا لا أقبل أبدًا ما قاله خليل باشا ، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع . وأحدث هذا الاستهلال وقعًا عميقًا في نفوس الحاضرين ، وخيم السكون على المجلس لحظة ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال : إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران . إن جيش الإسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف إلى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن أكبر من جيشنا فإن كان ذلك الجيش استطاع ان يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة ؟ وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن ما للدول الغربية هذه ؟ وهل هي الدول اللاتينية التي شغلها ما بينها من خصام وتنافس ، هل هي دول البحر المتوسط التي لا تقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية ؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن ، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا إلى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك ، أو ليس لنا جيش يدافع عن

(١) انظر : فتح القسطنطينية ، محمد صفوت ، ص١٠٣ .

(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧٧ .

كرامتنا وشرفنا ؟

يا صاحب السلطنة ، أما وقد سألتني رأيي فلأعلنها كلمة صريحة : يجب أن تكون قلوبنا كالصخر ، ويجب أن نواصل الحرب دون أن يظهر علينا أقل ضعف أو خور ، لقد بدأنا أمرًا فواجب علينا أن نتمه ، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة . لا أعرف شيئًا غير هذا ، ولا أستطيع أن أقول شيئًا غير هذا . . .) [١] .

وبدأت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول ، والتفت إلى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور : إن زوغنوش باشا قد أصاب فيما قال وأنا على رأيه يا سلطاني . ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما . وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابا أنهما على رأي زوغنوش باشا وقالا : (يجب الاستمرار في الحرب ، وبالغاية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر)[٢] .

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول : من كان من أجدادي في مثل قوتي [٣] ؟

لقد أيد العلماء الرأي القائل بمواصلة الجهاد كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح ، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك [٤] .

---

(١) انظر : محمد الفاتح للرشيدي ، ص١٢٢ .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص١٢٢ .

(٣) انظر : محمد الفاتح ، ص١٢٢ .

(٤) انظر : تاريخ الدولة العلية ، محمد فريد ، ص١٦٤ .

الحادي عشر : محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه :

في يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ٢٧ من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه ، لعل الله أن ييسر لهم الفتح ، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين ، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها ، وما وصلت إليه وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثماني ، تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء ، كما بعث إلى آل غلطة التي وقفت على الحياد مؤكدًا عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامنًا لهم الوفاء بعهده معهم ، وأنه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث . وفي مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون نارًا كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتهليل والتكبير [١] حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين ، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدمًا ، مما أقوع الرعب في قلوب الروم ، وفي اليوم التالي ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها ، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقدًا وموجهًا ومذكرًا بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد [٢] .

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس ، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد ، والثواب الجزيل من الله تعالى وستسد دسائس هذه المدينة التي طالما ملأت عليهم الأعداء والمتآمرين وسيكون لأول جندي ينصب راية الإسلام [٣] على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة .

---

(١) انظر : تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص٦٠ .
(٢) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧٨ .
(٣) انظر : محمد الفاتح ، ص١٢٥ .

وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرءون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال ، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري ويقولون للمجاهدين : لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري ، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا ، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشد الحماس والحمية [١] .

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم التعليمات الأخيرة ، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية : « إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا ، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم ، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون . .) [٢] .

وفي هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهال عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتنجو المدينة من هذا الحصار ، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها ، حيث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو ، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين ، كما صلى الإمبراطور ومن معه من النصارى الصلاة الأخيرة في كنيسة آيا صوفيا أقدس الكنائس عندهم [٣] ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص١٢٦ .
(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص١٢٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص١٢٩ .

فيه واستصفحهم وكان مشهدًا مؤثرًا وقد كتب مؤرخو النصارى عن هذا المشهد ، فقال من حضره : (لو أن شخصًا قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر) (١) .

وتوجه قسطنطين نحو صورة (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في أحد الغرف فركع تحتها وهمهم ببعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ فرانتزتس ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولاحظوا حركة الجيش العثماني النشطة المتوثبة للهجوم البري والبحري . وقبيل ذلك الليل بقليل رذت السماء رذًا خفيفًا كأنما كانت ترش الأرض رشًا فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال: (لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة) (٢) .

الثاني عشر : « فتح من الله ونصر قريب » :

عند الساعة الواحدة صباحًا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٣٥م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار ، وخاف البيزنطيون خوفًا عظيمًا ، وشروعوا في دق نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى وكان الهجوم النهائي متزامنًا بريًا وبحريًا في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة ، وكان الهجوم موزعًا على كثير من المناطق ، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس ، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه ، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين ، ومع استبسال

---

(١) محمد الفاتح ، ص١٢٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص١٣٠ .

البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة [١] ، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية ، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء ، وتمكنت الفرقة الجديدة، من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين ، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق ، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة، وفي الوقت نفسه أصدر أمرًا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا قد أرهقوا ، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال[٢] كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد ، ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يجددوا مواقع العدو بدقة أكثر ، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف ، وأتعبتهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابي ورفعوا الأعلام العثمانية [٣] .

(١) الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٨٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٨٢ .

مما زاد في حماس بقية الجيش الاقتحام كما فتوا في عضد الأعداء ، وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جستنيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة [(١)] مما أثر في بقية المدافعين ، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فارًا من أرض المعركة، وقد بذل الإمبراطور جهودًا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة ، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصيًا على أشده ، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين .

وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ورفعت الأعلام العثمانية عليها ، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يُعرف ، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة [(٢)] .

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم ، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده وكان قواده يهنئونه وهو يقول: (الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر) [(٣)] .

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين ، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك

---

(١) محمد الفاتح ، ص١٣٧ .
(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص١٣٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص١٣١ .

اليـوم الثـلاثـاء ٢٠ جمـادي الأولى ٨٥٧هـ الموافـق ٢٩ من مـايو ١٤٥٣م ، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون : ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال : لـقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الـذي أخبر عنهم رسول الله ﷺ وهنأهم بالنصر ونـهاهم عن القتل ، وأمرهم بالرفق بالنـاس والإحسان إليهم ، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكرًا وحمدًا وتواضعًا لله تعالى[١] .

الثالث عشر : معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين :

توجه محمد الفاتح إلـى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيهـا خلق كبير من الناس ومعهم الـقسس والرهبان الذين كـانوا يتلون عليهـم صلواتهم وأدعيتـهم ، وعندما اقترب من أبـوابها خاف النصارى داخـلها خوفًا عظيـمًا ، وقام أحد الرهبـان بفتح الأبواب له فطلـب من الراهب تهدئة الـناس وطمأنتهـم والعودة إلى بيوتـهم بأمان، فاطمأن الناس .

وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم ، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة ، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر، فأزالوا الصلبان والتمـاثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعـملوا منبرًا للخطب ، وقد يجوز تحويل الكنيسة إلي المسجد ؛ لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية .

وقد أعطى الـسلطان للنصـارى حرية إقامة الـشعائر الدينـية واختيـار رؤسائهم الدينيـين الذين لهم حق الحـكم في القضـايا المدنية ، كـما أعطى هذا الحـق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع[٢] .

لقد حاول المؤرخ الإنجـليزي إدوارد شيبردكريـسي في كتابه « تاريخ العـثمانيين الأتراك » أن يشوه صورة الفتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمدًا الفاتح

---

(١) الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٨٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٣٨٤ .

بصفات قبيحة حقدًا منه وبغضًا للفتح الإسلامي المجيد [١] وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حمأة الحقد الصليبي ضد الإسلام ، فزعمت أن السلطان محمدًا قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية ، وساقهم إلى أسواق الرقيق في مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك [٢] .

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول : إن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عددًا كبيرًا من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم ، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم ، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس بطريركا، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى ، دينية وسياسية واجتماعية وخرج البطريرك من لقاء السلطان ، وقد تغيرت فكرته تمامًا عن السلاطين العثمانيين وعن الأتراك ، بل والمسلمين عامة ، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة ، ورجولة مكتملة ، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثرًا ودهشة من بطريركهم ، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لابد لاحقهم ، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام [٣] .

كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد الإسلام ، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها ، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم ، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم [٤] .

---

(١) انظر : جوانب مضيئة ، ص٢٦٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٢٦٧ .

(٣) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٣٤ ، ١٣٥ .

(٤) انظر : جوانب مضيئة ، ص٢٧٤ .

إن ملل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على كافة حقوقها الدينية ، وأصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة ، كما أنه كان لا يتدخل أحد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها[١] .

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم ، وتأسيًا بالنبي الكريم ﷺ ثم بخلفائه الراشدين من بعده ، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم [٢] .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه ، ص٢٨٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٢٨٧ .

المبحث الثاني
الفاتح المعنوي للقسطنطينية
الشيخ آق شمس الدين

هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي ارتحل مع والده إلى الروم ، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح علمًا من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني.

وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كان مولده في دمشق عام ٧٩٢هـ (١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره ، ودرس في أماسيا ثم في حلب ثم في أنقرة وتوفي عام ١٤٥٩م.

درس الشيخُ آق شمس الدين للأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات (العربية، والفارسية والتركية) وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسا ليتدرب على إدارة الولاية ، وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي : « **لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**» (١).

وعندما أصبح الأمير محمد سلطانًا على الدولة العثمانية ، وكان شابًا صغير السن وجهه شيخه فورًا إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية برًا وبحرا . ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يومًا .

وعندما حقق البيزنطيون انتصارًا مؤقتًا وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن أرسلها البابا إليهم وارتفعت روحهم المعنوية اجتمع الأمراء والوزراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمدًا الفاتح وقالوا له : (إنك دفعت بهذا القدر الكبير من

---

(١) سبق تخريج الحديث .

العساكر إلى هذا الحصار جريًا وراء كلام أحد المشايخ - يقصدون آق شمس الدين - فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن جاء عون من بلاد الإفرنج للكافرين داخل القلعة ، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح . . .) (١) . فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ : (لابد من أن يمن الله بالفتح) (٢) .

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب ، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر ، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها : (هو المعز الناصر . . . إن حادث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة . إن القضية الثابتة هي : إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله . . ولقد لجأنا إلى الله وتلونا القرآن الكريم وما هي إلا سنة من النوم بعد إلا وقد حدثت ألطاف الله تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل) (٣) .

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود . وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية ، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده ، وقال : علمني يا سيدي دعاءً أدعو الله به ليوفقني ، فعلمه الشيخ دعاءً ، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام (٤) .

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع

---

(١) انظر : البطولة والفداء عند الصوفية ، أسعد الخطيب ، ص١٤٦ .
(٢) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٣ .
(٣) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٣ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص٣٧٣ .

الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجدًا لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور ، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه ، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب (١) .

وعاد السلطان محمد (الفاتح) عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية (٢) . ففرح السلطان بذلك وقال : ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني (٣) .

وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع: أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهر فضله وأنه حدد للسلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطينية على يديه (٤).

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس ، تقدم الشيخ إلى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هي في الشريعة الإسلامية (٥) .

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات ، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد (سيد القوم خادمهم) . ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم ، فقال : يا جنود الإسلام اعلموا واذكروا أن النبي ﷺ قال في شأنكم : « **لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش** » (٦) . ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٤ . (٢) المصدر السابق نفسه ، ص٣٧٤ .
(٣) انظر : البدر الطالع (٢/ ١٦٧) . (٤) المصدر السابق نفسه (١٦٦/ ٢).
(٥) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٤. (٦) سبق تخريج الحديث .

لنا . ألا لا تسرفوا في ما أصبتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة ، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه . ثم التفت إلى الفاتح وقال له : يا سلطاني ، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان فكن على الدوام مجاهدًا في سبيل الله . ثم صاح مكبرًا بالله في صوت جهوري جليد [١] .

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية [٢] .

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا[٣] .

الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور :

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حبّا عظيمًا ، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله ـ بعد الفتح ـ : (إنكم ترونني فرحًا. فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي ، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين) .

وعبر السلطان عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا . قال السلطان الفاتح : (إن احترامي للشيخ آق شمس الدين ، احترام غير اختياري. إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة) [٤] .

ذكر صاحب البدر الطالع أن : (... ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة ـ أي آق شمس الدين ـ وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة قال : وما هي ؟ قال : أن أدخل الخلوة عندك فأبى فأبرم عليه السلطان مرارًا وهو يقول : لا ، فغضب السلطان وقال : إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى علي؟ فقال الشيخ : إنك إذا

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص١٤٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص١٤٩ .
(٣) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ،ص٣٧٤ .
(٤) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٥ .

دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئًا من النصائح ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه : ما قام الشيخ لي . فقال له : لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظام فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو . .)[١] .

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والإسلام والإحسان ولم يكن هذا الشيخ متبحرًا في علوم الدين والتزكية فقط بل كان عالمًا في النبات والطب والصيدلة ، وكان مشهورًا في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض . وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول : (إن النبات ليحدث آق شمس الدين)[٢] .

وقال الشوكاني عنه : (. . . وصار مع كونه طبيبًا للقلوب طبيبًا للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول : أنا شفاء من المرض الفلاني ثم اشتهرت بركته وظهر فضله . . .)[٣] .

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية .

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتمامًا خاصًا بالأمراض المعدية ، فقد كانت هذه الأمراض في عصره تتسبب في موت الآلاف ، وألف في ذلك كتابًا بالتركية بعنوان «مادة الحياة» قال فيه : (من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيًا، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى . هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة . لكن هذا يحدث بواسطة بذور حية)[٤] .

---

(١) البدر الطالع (٢/ ١٦٧) .
(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٥ .
(٣) البدر الطالع (٢/ ١٦٦) .
(٤) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٦ .

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي . وهو أول من فعل ذلك ، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد . وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة .

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضًا بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما : (مادة الحياة) ، و (كتاب الطب) ، وهما باللغة التركية والعثمانية. وللشيخ باللغة العربية سبع كتب ، هي : حل المشكلات ، الرسالة النورية ، مقالات الأولياء ، رسالة في ذكر الله ، تلخيص المتائن ، دفع المتائن ، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي [(١)] .

وفاته :

عاد الشيخ إلى موطنه كونيوك بعد أن أحس بالحاجة إلى ذلك رغم إصرار السلطان على بقائه في إستنبول ومات عام ٨٦٣هـ / ١٤٥٩م فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان [(٢)] .

وهكذا سنة الله في خلقه لا يخرج قائد رباني ، وفاتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون في تعليمه وتربيته وترشيده والأمثلة في ذلك كثيرة وقد ذكرنا دور عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في دولة المرابطين ، والقاضي الفاضل مع صلاح الدين في الدولة الأيوبية ، وهذا آق شمس الدين مع محمد الفاتح في الدولة العثمانية فرحمة الله على الجميع وتقبل الله جهودهم وأعمالهم وأعلى ذكرهم في المصلحين .

* * *

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٣٧٦.

المبحث الثالث

أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الإسلام في أوروبا ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الإسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكثر من ذي قبل ، ويعتبر فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصًا تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة [١] .

وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة ، وإعادة تحصينها ، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب إسلام بول أي مدينة الإسلام [٢] .

لقد تأثر الغرب النصراني بنبأ هذا الفتح ، وانتاب النصارى شعور بالفزع والألم والخزي ، وتجسم لهم خطر جيوش الإسلام القادمة من إستنبول ، وبذل الشعراء والأدباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين ، وعقد الأمراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة وتنادي النصارى إلى نبذ الخلافات والحزازات ، وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثرًا بنبأ سقوط القسطنطينية ، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الإيطالية وتشجيعها على قتال المسلمين ، وترأس مؤتمرًا عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك . وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمدًا في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥م [٣] .

(١) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزيونا ، ص٣٨٤ .
(٢) انظر : تاريخ الدولة العلية ، محمد فريد بك ، ص١٦٤ .
(٣) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٣٦ ، ١٣٧ .

وتحمس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا والتهب حماسًا وحمية واستنفر ملوك النصارى إلى قتال المسلمين وحذا حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية ، وتحولت فكرة قتال المسلمين إلى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم ، وتزعمت البابوية في روما حروب النصارى ضد المسلمين وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى ، وخطط ونفذ ما رآه مناسبًا لتقوية دولته وتدمير أعدائه ، واضطر النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمدًا أو يتاخمون حدوده ففي آماسيا وبلاد المورة ، وطرابيزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقي ، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم إلى السلطان في أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم (١) .

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوبًا وملوكًا ، قادة وجنودًا واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين ولما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية ، فلقد أنهكت حرب المائة عام إنكلترا وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية ، وأما إسبانيا فهي مشغولة بالقضاء على مسلمي الأندلس وأما الجمهوريات الإيطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحبا في المال ، فكانت تهتم بعلاقتها مع الدولة العثمانية .

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا وأصبحت المجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية لوحدهما ؛ أما البندقية فعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها ،وأما المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية واستطاع العثمانيون أن يضموا إلى دولتهم بلاد الصرب ، واليونان والأفلاق والقرم والجزر الرئيسية في الأرخبيل ، وقد تم ذلك في فترة قصيرة ، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم ، وأخذهم أخذًا عظيمًا (٢) .

وحاول البابا (بيوس الثاني) بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز

(١) المصدر السابق نفسه ، ص١٤٠ . (٢) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٤٠ .

جهوده في ناحيتين اثنتين : حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين النصراني، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض وإنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية ، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو اعتنق النصرانية مخلصًا ، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكًّا بدخول الجنة ، ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة ، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقًا بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادها هونياد المجري [١] .

وأما آثار هذا الفتح المبين في المشرق الإسلامي ـ فنقول : لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا وأفريقيا فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الأجيال ، ولقد تطلعت له طويلاً وها قد تحقق وأرسل السلطان محمد الفاتح رسائل إلى حكام الديار الإسلامية في مصر والحجاز وبلاد فارس والهند وغيرها ؛ يخبرهم بهذا النصر الإسلامي العظيم ـ وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر ، وأقيمت صلوات الشكر ، وزينت المنازل والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط والأعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة [٢] .

يقول ابن إياس صاحب كتاب (بدائع الزهور) في هذه الواقعة : (فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح ، دقت البشائر بالقلعة ، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولاً إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح)[٣].

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم ، قال: (قلت: ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء إسطنبول وطلع بهما إلى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل

(١) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٤١ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص١٤٢ . (٣) المصدر السابق نفسه ، ص١٤٢ .

القسطنطينية وهي الكنيسة العظيمة بإسطنبول فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أيامًا ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة في يوم الإثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة . وقد احتلفت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل . . .) (١) .

وهذا الذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال الناس وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت في البلاد الإسلامية الأخرى ، وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلى سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان ، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلى الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيا وألبانيا وإلى جميع أطراف مملكته (٢) .

من رسالة الفاتح إلى سلطان مصر :

وإليك مقتطفات من رسالة الفاتح إلى أخيه سلطان مصر الأشرف إينال وهي من إنشاء الشيخ أحمد الكوراني : (. . إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالى أنهم مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالى : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٢٩] ، ومستمسكين بقوله عليه السلام : « **من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار** » فهممنا في هذا العام عممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزاء في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى: ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ . . . .** ﴾ [التوبة : ١٢٣] وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورًا وكفرًا التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخرًا .

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٦/ ٧١) .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص١٤٢ .

فكأنها حصف على الخد الأغـــر وكأنها كلف علــــى وجــه القمر

. . . هذه المدينة الواقع جانـب منها في البحر وجانب منها فـي البر ، فأعددنا لها كما أمـرنا الله بقوله : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .....﴾ [الأنفال : ٦٠] كل أهبة يـعتد بهـا وجميع أسلـحة يعتـمد عليـها من البرق والـرعد والمنجنيـق والنقب والحجور وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشآت في البحر كالأعلام من جانب البحر ونـزلنا عليها في السادس والعشرين مـن ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

فقلت للنفس جدي الآن فاجتهدي وسـاعدينـي فهذا مـا تمنيـت

فكلـما دعوا إلـى الحق أصروا واسـتكبروا وكـانوا من الـكافرين فـأحطنا بـها محاصـرة وحاربناهم وحاربونا وقـاتلناهم وقاتلونا وجـرى بيننا وبينهم القـتال أربعة وخمسين يومًا وليلة.

إذا جاء نصـر الله والفتــح هين على المرء معسور الأمور وصعبها

فمتـى طلع الصبح الصـادق من يوم الثلاثاء يـوم العشرين من جـمادى الأولى هجمنا مـثل النجوم رجومًا لجـنود الشياطين سخـرها الحكم الصديقي ببـركة العدل الفاروقي بالضرب الحيدري لآل عثمان قد من الله بالفتح قبل أن ظهرت الشمس من مشرقـها : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦] ، وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا كقوم عاد وثمود فحفـظهم ملائكة العذاب فأوردهم النار وبئس المآب فـقتل من قتل وأسر من به بقى وأغاروا عـلى خزاينهم وأخرجوا كنوزهـم ودفافينهم موفورًا فـأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شـيئًا مذكورًا وقطع دابر القوم الذين ظلـموا والحمد لله رب العالمين فيومئذ يفرح المؤمنون بنـصر الله ، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس طهرنا القوس مـن القسوس وأخرجنا منه الصليب والناقوس وصـيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفـت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة فوقع أمر الله وبطل ما كانوا يعملون . . . [(١)].

---

(١) محمد الفاتح ، ص١٦٣ ـ ١٦٧ .

وأرسل السلطان الفاتح رسالة إلى شريف مكة عن طريق سلطان مصر وقد رد سلطان مصر على خطاب السلطان محمد وهداياه بمقطوعة من النثر الأدبي الرفيع وجاءت فيها بعض الأبيات الشعرية المعبرة مثل قول الشاعر :

خطبتها بكرًا وما أمهرتها إلا قنا وقواضبًا وفوارسا

من كانت السمر العوالي مهره جلبت له بيض الحصون عرايسا

الله أكبر ما جنيت ثمارها إلا وكان أبوك قبلك غراسا (١)

وقد جاء في رسالة سلطان مصر أيضًا هذا البيت ، قال الشاعر :

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما يزعم البشر(٢)

وقال شاعر سلطان مصر بمناسبة فتح القسطنطينية :

كذا فليكن في الله جل العزايم وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها إذا ما تهدت موجه المتلاطم

تحيط بمنصور اللواء مظفر له النصر والتأييد عبد وخادم

فيا ناصر الإسلام يا من بغزوه على الكفر أيام الزمان مواسم

تهنَّ بفتح سار في الأرض ذكره سرى الغيث يحدوه الصبا والنعايم(٣)

رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة :

وجه السلطان محمد الفاتح رسالة إلى شريف مكة المكرمة بمناسبة فتح القسطنطينية بشره فيها بالفتح ، وطلب الدعاء ، وأرسل له الهدايا من الغنائم، وهذه بعض فقراتها :

---

(١) محمد الفاتح ، ص١٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص١٧٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص١٧٧ .

بعد مقدمة في المدح والثناء على شريف « مكة المكرمة » يقول : « فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشرًا بما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وهي تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية ، فالمأمول من مقر عزكم الشريفة أن يبشر بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى ، مع سكان الحرمين الشريفين ، والعلماء والسادات المهتدين ، والزهاد والعباد الصالحين ، والمشايخ، والأمجاد الواصلين ، والأئمة الخيار المتقين ، والصغار والكبار أجمعين ، والمتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام ، التي كالعروة الوثقى لا انفصام لها والمشرفين بزمزم والمقام ، والمعتكفين في قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام داعين لدوام دولتنا في العرفات ، متضرعين من الله نصرتنا ، أفاض علينا بركاتهم ورفع درجاتهم ، وبعثنا مع المشار إليه هدية لكم خاصة ألفي فلوري من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة ، وسبعة آلاف فلوري أخرى للفقراء ، منها ألفان للسادات والنقباء ، وألف للخدام المخصوصين للحرمين ، والباقي للمساكين المحتاجين في مكة والمدينة المنورة ، زادهما الله شرفًا ، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم ، وإشعار كيفية السير إلينا ، وتحصيل الدعاء منهم لنا ، دائمًا باللطف والإحسان إن شاء الله تعالى، والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين (١) .

وقد رد شريف مكة على رسالة السلطان محمد الفاتح : (وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين وما هي إلا فتح « القسطنطينية » العظمى وتوابعها التي متانة حصنها مشهورة بين الأنام ، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير ، وبشنا ذلك غاية البشاشة، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام والسلوك مسالك أجدادكم الكرام ، روح الله أرواحهم ، وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم ، في إظهار المحبة لسكان الأراضي المقدسة (٢) .

---

(١) الدولة العثمانية، الدكتور جمال عبد الهادي ، ص٤٧ . (٢) المصدر السابق نفسه ، ص٤٨ .

المبحث الرابع

أسباب فتح القسطنطينية

إن فتح المسلمين للقسطنطينية لم يأت من فراغ وإنما هو نتيجة لجهود تراكمية قام بها المسلمون منذ العصور الأولى للإسلام رغبة من تلك الأجيال في تحقيق بشارة رسول الله ﷺ وزاد الاهتمام بفتح القسطنطينية مع ظهور دولة بني عثمان ونلاحظ أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا أصحاب فقه عميق لسنة الأخذ بالأسباب ومارس محمد الفاتح ذلك الفقه ويظهر ذلك من خلال سيرته الجهادية وحرصه على العمل بقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

لقد فهم محمد الفاتح من هذه الآية أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى ، على اختلافها وتنوعها ، ولقد قام بشرح هذه الآية شرحًا عمليًا في جهاده الميمون فقام بحشد جيش عظيم لحصار القسطنطينية ولم يتوان في جلب كل سلاح معروف في زمانه من مدافع ، وفرسان ، ورماة . . إلى آخره.

ولقد كان الجيش الذي حاصر القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح قد أعد إعدادًا ربانيًا فتربى على معاني الإيمان والتقوى ، وتحمل الأمانة وأداء الرسالة المنوطة به ولقد تربى على معاني العقيدة الصحيحة وأشرف العلماء الربانيون على تلك التربية ولقد جعلوا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه منهجًا لهم في تربية الأفراد ، فكانوا يربونهم على:

١ ـ أن الله تعالى واحد لا شريك له ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا وأنه منزه عن النقائص ، وموصوف بالكمالات التي لا تتناهي .

٢ ـ وأنه سبحانه خالق كل شيء ، ومالكه ، ومدبر أمره

قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف :٥٤].

٣ ـ وأنه سبحانه وتعالى مصدر كل نعمة في هذا الوجود ، دقت أو عظمت،

ظهرت أو خفيت ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل : ٥٣] .

٤ ـ وأن علمه محيط بكل شيء ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق :١٢] .

٥ ـ وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته ، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

٦ ـ وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون ، وما يهوون ، ليعرف الناس معادنهم ، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره ، ويسلم له ظاهرًا وباطنًا ، فيكون جديرًا بالخلافة والإمامة والسيادة ، ومن منهم يغضب ويسخط فلا يساوي شيئًا ولا يسند إليه بشيء : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] .

٧ ـ وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه ، ولاذ بحماه ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف :١٩٦] .

٨ ـ وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه ، ويوحدوه ، فلا يشركوا به شيئًا : ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر :٦٦] .

٩ ـ وأنه سبحانه ـ حدد مضمون هذه العبودية ، وهذا التوحيد في القرآن العظيم.

ولقد نهج علماء الدولة العثمانية منهج الرسول ﷺ في تربية الأفراد والجنود على حقيقة المصير وسبيل النجاة وركزوا في البيان على الجوانب التالية:

١ ـ إن هذه الحياة مهما طالت فهي إلى زوال ، وأن متاعها مهما عظم فإنه قليل حقير : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ

نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤] ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

٢ ـ وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسئولون ومحاسبون وفي الجنة أو في النار مستقرون: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

٣ ـ وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارة في الدنيا، وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

٤ ـ وأن الناس مع زوال الدنيا، واستقرارهم في الجنة، أو في النار، سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢] وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

٥ ـ وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال، ومن تلك الشدائد، والظفر بالجنة والبعد عن النار [1]، بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

ومضى العلماء الربانيون في الدولة العثمانية على منهج الرسول ﷺ في تبصير الأفراد والجنود والقادة والشعب بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله وظلوا على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم، ما لهم عند الله، وما دورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثرًا بهذه التربية الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس الأفراد والجنود والقادة فهذا محمد الفاتح نفسه الذي

---

(١) انظر: منهج الرسول في غرس الروح الجهادية، ص١٩ ـ ٣٤.

تربى على هذا المنهج يفتخر بهذه المعاني والقيم في أشعاره فنجده يقول :

وحماسي : بذل الجهد لخدمة ديني ، دين الله .

عزمي : أن أقهر أهل الكفر جميعًا بجنودي : جند الله .

وتفكيري : منصب على الفتح ، على النصر على الفوز ، بلطف الله.

جهادي : بالنفس وبالمال ، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله .

وأشواقي : الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله .

رجائي : في نصر الله . وسمو الدولة على أعداء الله (١) .

وعندما أراد السلطان محمد فتح مدينة طرابزون وكان حاكمها نصرانيًا وكان يريد أن يباغتها على غرة ، فأعد العدة ، واستصحب معه عددًا كبيرًا من العمال المتخصصين في قطع الأشجار وتعبيد الطرق ، وقد صادف الفاتح في طريقه بعض الجبال العالية الوعرة فترجل عن فرسه وتسلقها على يديه ورجليه كسائر الجند (وكانت معه والدة حسن أوزون زعيم التركمان جاءت للإصلاح بين السلطان محمد وابنها) فقالت له : (فيم تشقى كل هذا الشقاء يا بني وتتكبد كل هذا العناء، هل تستحق طرابزون كل هذا ؟) . . فأجاب الفاتح : يا أماه ، إن الله قد وضع هذا السيف في يدي لأجاهد به في سبيله ، فإذا أنا لم أتحمل هذه المتاعب وأؤد بهذا السيف حقه فلن أكون جديرًا بلقب الغازي الذي أحمله وكيف ألقى الله بعد ذلك يوم القيامة ؟ (٢) وهكذا كان معظم الجنود والقادة بسبب تربيتهم الإيمانية العميقة .

لقد كان جيش محمد الفاتح في حصار القسطنطينية على جانب عظيم من التمسك بالعقيدة الصحيحة ، والعبادات وإقامة شعائر الدين والخضوع لله رب العالمين (٣) .

لقد ذكر المؤرخون أسبابًا كثيرة في فتح القسطنطينية ، كضعف الدولة البيزنطية،

---

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٥٨ . (٢) انظر : محمد الفاتح ، ص٢٦٣.

(٣) انظر : الحسبة في العصر المملوكي ، د. حيدر الصافح ، ص٢٠٦ .

والصراعات العقدية بداخلها ، والتآكل الداخلي للدول الأوروبية بسبب القتال الذي نشأ بين الدول الأوروبية لعقود طويلة وغير ذلك من الأسباب .

أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب تكسب العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق ، وكتاب الله تعالى مليء بسننه وقوانينه المبثوثة في المجتمعات والدول والشعوب قال تعالى : ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [النساء:٢٦] .

وسنن الله تتضح بالتدبر في كتاب الله وفيما صح عن رسول الله ﷺ ، فقد كان ﷺ يقتنص الفرص ويستفيد من الأحداث ليرشد أصحابه إلى شيء من السنن ، ومن ذلك أن ناقته ﷺ « العضباء » كانت لا تُسبق ، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له ، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم عليه الصلاة والسلام كاشفًا عن سنة من سنن الله : « **حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه**» (١) .

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسَّيْر ، وفي الأزمنة من التاريخ والسير ، قال تعالى : ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨] .

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكر قال تعالى :

﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ**﴾ [يونس : ١٠١ ـ ١٠٢] .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب ناقة رسول الله (٦/ ٨٦) .

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً : أنها قدر سابق :

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب :٣٨] .

أي أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كـائن لا محالة ، وواقع لا حياد عنه ولا معدل ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ثانيًا : أنها لا تتحول ولا تتبدل :

قال تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٦٠-٦٢].

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح : ٢٢, ٢٣] .

ثالثًا : أنها ماضية لا تتوقف :

قال تعالى : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

رابعًا : أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها :

قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٢ -٨٥] .

خامسًا : لا ينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون :

قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٧ ـ ١٣٨] .

سادسًا : أنها تسري على البر والفاجر :

فالمؤمنون والأنبياء أعلاهم قدرًا تسري عليهم سنن الله ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل أمر الله أو أعرض عنه وبما أن العثمانيين ألتزموا بشرع الله في كافة شئونهم ومروا بمراحل طبيعية في حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح بين :

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية، أما الآثار الدنيوية التي ظهرت لي من خلال دراستي للدولة العثمانية فإنها :

أولاً : الاستخلاف والتمكين :

حيث نجد العثمانيين منذ زعيمهم الأول عثمان حتى محمد الفاتح ومن بعده حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسهم وأهليهم وأخلصوا لله في تحاكمهم إلى شرعه ، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم واستخلفهم في الأرض وأقام العثمانيون شريعة الله في الأرض التي حكموها ، فمكن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان .

وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة لإقامة شرع الله .

وقد خاطب تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعدًا إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور :٥٥] من بني إسرائيل .

ولقد حقق العثمانيون الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن ، فأتتهم ثمرة ذلك وأثره الباقي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور : ٥٥] فحققوا التحاكم إلى

الدين ، فتحقق لهم التمكين.

ثانيًا : الأمن والاستقرار :

كانت بلاد آسيا الصغرى مضطربة وكثرت فيها الإمارات المتنازعة ، وبعد أن أكرم الله تعالى العثمانيين بتوحيد تلك الإمارات وتوجيهها نحو الجهاد في سبيل الله تعالى يسر الله للدولة العثمانية الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن الدولة العثمانية بعد أن استخلفت مكن الله لها وأعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تحافظ على مكانتها وهذه سنة جارية ماضية ضمن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذي ينشدون في أنفسهم وواقعهم ، فبيده سبحانه مقاليد الأمور ، وتصريف الأقدار ، وهو مقلب القلوب، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه قال تعالى : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام : ٨٢] فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك ، صغيره وكبيره ، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته .

إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من التأمين ، والتطمين والبعد عن الخوف والفزع .

إن العثمانيين عندما حققوا العبودية لله ونبذوا الشرك بأنواعه حقق الله لهم الأمن في النفوس على مستوى الشعب والدولة .

ثالثًا : النصر والفتح :

إن العثمانيين حرصوا على نصرة دين الله بكل ما يملكون وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته قال تعالى : ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ**

في الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠ ـ ٤١].

(وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف . . . إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ، وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ : ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص : ٥٧] ، فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان) [١] .

إن الله تعالى أيد العثمانيين على الأعداء ومن عليهم بالفتح ، فتح الأراضي وإخضاعها لحكم الله تعالى ، وفتح القلوب هدايتها لدين الإسلام .

إن العثمانيين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جلبت لهم الفتح ، واستنزلت عليهم نصر الله .

إن الشعوب الإسلامية التي تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها في الدنيا والآخرة.

إن مسؤولية الحكام والقضاة والعلماء والدعاة في الدعوة إلى تحكيم شرع الله مسؤولية عظيمة يسألون عنها يوم القيامة أمام الله : (إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله ، وقع بأسهم بينهم . . وهذا أعظم أسباب تغير الدول كما جرى هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره) ، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه ؛ فإن الله يقول في كتابه : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١] فقد وعد الله بنصر من ينصره ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله ،

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٧٠٤) .

لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم) [١] .

رابعًا : العز والشرف :

إن عز العثمانيين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ الذي به تشرف الأمة وبه يعلو ذكرها ، وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠] .

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية : (فيه شرفكم) [٢] إن العثمانيين استمدوا شرفهم وعزهم من استمساكهم بأحكام الإسلام،كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (إنا كنا أذل قوم ، فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله) [٣] ، فعمر رضي الله عنه كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزًا وذُلا ، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدبارًا ، فما عزت في يوم بغير دين الله ، ولا ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه قال تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر : ١٠] يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل [٤] .

وقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقين : ٨] .

إن سيرة سلاطين العثمانيين من أمثال عثمان الأول ، ومراد ، ومحمد الفاتح تبين لنا اعتزازهم بالإسلام وحبهم للقرآن واستعدادهم للموت في سبيل الله، ولقد عاشوا في بركة من العيش ورغد من الحياة الطيبة وما نالوا ذلك إلا بإقامة دين الله قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٥/٣٨٨) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب الإيمان (١/ ٦٢) .

(٤) ابن كثير (٢/٥٢٦) .

خامسًا : انتشار الفضائل وانزواء الرذائل :

لقد انتشرت الفضائل في زمن محمد الفاتح وانحسرت الرذائل ، فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة متطلعًا إلى ما عند الله من الثواب يخشى من عقاب الله لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه إلى ما يحبه الرحمن وإلى تعاليم الإسلام .

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب والدول التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت الدولة العثمانية لهي من سنن الله الجارية والتي لا تتبدل ولا تتغير فأي شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراده وحكامه ودولته .

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله وأخذهم بسنن التمكين وفقه ومراعاة التدرج والمرحلية والانتقاء من أفراد الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلامية المنشودة . إن الانتصارات العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على أيدي من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وزكى نفسه ولهذا لم يأت فتحًا عظيمًا وفتحًا مبينًا إلا من توفرت فيهم صفات جيل التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم .

* * *

المبحث الخامس

أهم صفات محمد الفاتح

لقد ظهرت بعض الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح عند البحث والدراسة ومن أهم هذه الصفات :

١ ـ الحزم :

وظهر ذلك عندما غلب ظنه أن هناك تقصيرًا أو تكاسلاً من جانب قائد الأسطول العثماني بالطه أوغلي عند حصاره للقسطنطينية ، فأرسل إليه وقال: (إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حيًا) [(١)] .

ولما لم يحقق بالطه أوغلي مهمته عزله ، وجعل مكانه حمزة باشا .

٢ ـ الشجاعة :

وكان رحمه الله يخوض المعارك بنفسه ويقاتل الأعداء بسيفه وفي إحدى المعارك في بلاد البلقان تعرض الجيش العثماني لكمين من قبل زعيم البوغدان استفان حيث تخفى مع جيشه خلف الأشجار الكثيفة المتلاصقة وبينما المسلمون بجانب تلك الأشجار انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة من بين الأشجار وانبطح الجنود على وجوههم وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان الفاتح وتباعد عن مرمى المدافع وعنف رئيس الإنكشارية محمد الطرابزوني على تخاذل جنده، ثم صاح فيهم : (أيها الغزاة المجاهدون كونوا جند الله ولتكن فيكم الحمية الإسلامية)[(٢)] وأمسك بالترس واستل سيفه وركض بحصانه واندفع به إلى الأمام لا يلوي على شيء وألهب بذلك نار الحماس في جنده فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابة

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص١٠١ .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص٢٤٦ .

على من فيها ونشب بين الأشجار قتال عنيف بالسيوف استمر من الضحى إلى الأصيل.

ومزق العثمانيون الجنود البوغدانية شر ممزق ووقع استفان من فوق ظهر جواده ولم ينج إلا بصعوبة وولى هاربًا ، وانتصر العثمانيون وغنموا غنائم وفيرة [١] .

٣ ـ الذكاء :

ويظهر ذلك في فكرته البارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش إلى القرن الذهبي ، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعدًا عن حي غلطة خوفًا على سفنه من الجنويين ، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضًا مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهادًا وتلالاً غير ممهدة وشرع في تنفيذ الخطة ؛ ومهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم ، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها ، لقد كان هذا العمل عظيمًا بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل تجلى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ ، مما يدل على ذكاء محمد الفاتح الوقاد [٢] .

٤ ـ العزيمة والإصرار :

فعندما أرسل السلطان محمد الفاتح إلى الإمبراطور قسطنطين يطلب منه تسليم القسطنطينية حتى يحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها ، فعندما رفض قسطنطين تسليم المدينة قال السلطان محمد : (حسنًا عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر) [٣] .

وعندما استطاع البيزنطيون أن يحرقوا القلعة الخشبية الضخمة المتحركة كان رده (غدًا نصنع أربعًا أخرى) [٤] .

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٢٤٧ . (٢) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٠٢ .

(٣) انظر : الفتوح الإسلامية عبر العصور ، ص٣٧٦.

(٤) السلطان محمد الفاتح ، ص١٢٢ .

وهذه المواقف تدل على عزيمته وإصراره في الوصول إلى هدفه .

٥ ـ عدله :

حيث عامل أهل الكتاب وفق الشريعة الإسلامية وأعطاهم حقوقهم الدينية ولم يتعرض أحد من النصارى للظلم أو التعدي بل أكرم زعماءهم وأحسن إلى رؤسائهم وكان شعاره : العدل أساس الملك [١] .

٦ ـ عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان :

نجد السلطان محمدًا عند دخول القسطنطينية يقول : (حمدًا لله ، ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ، ولشعبي الفخر والشكر) [٢] .

فهو أسند الفضل إلى الله ولذلك لهج لسانه بالحمد والثناء والشكر لمولاه الذي نصره وأيده وهذا يدل على عمق إيمان محمد الفاتح بالله سبحانه وتعالى .

٧ ـ الإخلاص :

إن كثيرًا من المواقف التي سجلت في تاريخ الفاتح تدلنا على عمق إخلاصه لدينه وعقيدته في أشعاره ومناجاته لربه سبحانه وتعالى حيث يقول :

نيتي : امتثالي لأمر الله (وجاهدوا في سبيل الله) .

وحماسي : بذل الجهد لخدمة ديني ، دين الله .

عزمي : أن أقهر أهل الكفر جميعًا بجنودي : جند الله .

وتفكيري : منصب على الفتح ، على النصر على الفوز ، بلطف الله .

جهادي : بالنفس وبالمال ، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله .

وأشواقي : الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله .

رجائي : في نصر الله ، وسمو الدولة على أعداء الله [٣] .

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص١٥٢ . (٢) السلطان محمد الفاتح ، ص١٣١ .
(٣) انظر : العثمانيون في التاريخ .

٨ ـ علمه :

اهتم والده به منذ الطفولة ولذلك خضع السلطان محمد الفاتح لنظام تربوي أشرف عليه مجموعة من علماء عصره المعروفين ، فتعلم القرآن الكريم والحديث والفقه والعلوم العصرية ـ آنذاك ـ من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية ، وكان من كرم الله للسلطان محمد الفاتح أن أشرف على تعليمه مجموعة من آساطين العلماء في عصره وفي مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين والملا الكوراني (عالم الدين عند العثمانيين الأوائل الذى كان موسوعيًا في شتى العلوم المعروفة في عصره) . ولقد تأثر محمد الفاتح بتربية شيوخه وظهرت تلك التربية في اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية [١] .

ولقد تبحر السلطان محمد في اللغات الإسلامية الثلاثة التي لم يكن يستغنى عنها مثقف في ذلك العصر وهي : العربية والفارسية والتركية ، ولقد كان السلطان محمد الفاتح شاعرًا وترك ديوانًا باللغة التركية [٢] .

* * *

(١) السلطان محمد الفاتح ، ص١٣١ .

(٢) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٥٤ ـ ٢٥٩ .

المبحث السادس

شيء من أعماله الحضارية

اهتمامه بالمدارس والمعاهد :

كان السلطان محمد الفاتح محبًّا للعلم والعلماء ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته . وقد كان السلطان أورخان أول من أنشأ مدرسة نموذجية في الدولة العثمانية وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه وانتشرت المدارس والمعاهد في بروسة وأدرنة وغيرها من المدن .

ولقد فاق محمد الفاتح أجداده في هذا المضمار وبذل جهودًا كبيرة في نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن الكبيرة والصغيرة وكذلك القرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة ، ونظم هذه المدارس ورتبها على درجات ومراحل ، ووضع لها المناهج ، وحدد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة ، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السابقة ويخضع لامتحان دقيق وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها وأحيانًا يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس بين الحين والحين ولا يأنف من استماع الدروس التي يلقيها الأساتذة ، وكان يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان وكانت المواد التي تدرس في تلك المدارس : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والأدب ، والبلاغة ، وعلوم اللغة من المعاني والبيان والبديع، والهندسة . . . إلى آخره .

وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثماني مدارس على كل جانب من جوانب المسجد أربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته وألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة ينامون فيها ويأكلون فيها

طعامهم ووضعت لـهم منحة مالية شهرية ، وكان المـوسم الدراسي على طول السنة في هذه المدارس وأنشـأ بجانبها مـكتبة خاصة وكـان يشترط في الرجل الـذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقـوى متبحرًا في أسماء الكتب والمؤلفين وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمـدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة دقيقة ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص وهذا الأمين مسئول عن الكتب التي في عهـدته ومسئول عن سلامـة أوراقها (١) وتخضع هذه المـكتبة للتفـتيش كل ثلاثة أشهر على الأقـل وكانت مناهج هذه المدارس يتضمن نظـام التخصص ، فكان للعلوم النقـلية والنظرية قسمًا خـاصًا وللعلوم التطبيـقية قسمًا خاصًـا أيضًا ، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافـسون في إنشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية (٢) .

اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء :

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى مـحمد الفاتح ، فقرب إليه العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا ليتفرغوا للعلم والتعليم ويكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان إلى الدولة أمر بنقل العـمال والصناع إلى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمـد باشا ظلم الناس ومن بيـنهم بعض العلماء وأهـل الفضل ومن بينهم العالم أحمد جلبي بن السلطان أمير علي فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه وأعاده إلى وطنه مع رفقائه معززًا مكرمًا .

وبعد أن هـزم أوزون حسن زعيـم التركمـان وكان هذا الزعيـم لا يلتزم بعـهد ويناصر أعداء العثمانيين من أي ملة كانت ، فبعد أن هزمه محمد الفاتح وقع في يده عدد كـبير من الأسرى ، فـأمر السلطـان الفاتح بقتـلهم (إلا من كان من العـلماء وأصحاب المعارف مثل الـقاضي محمد الشريحي وكان من فضـلاء الزمان ، فأكرمه

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٣٨٤ .

السلطان غاية الإكرام) .

وكان السلطان الفاتح يحترم العلماء وأهـل الورع والتقى وقد تستبد به في بعض الأحيان نزوة جامعة أو غضبة طارئة ولـكنه ما يلبث إلا أن يعود إلى وقاره واحترامه لهم .

وتحدثنا كتب التاريخ أن السلطان محمدًا بعث مع أحد خدامه بمرسوم إلى الشيخ أحمد الكوراني ـ وكان حين ذاك يتولى قضاء العسكر ـ فوجد فيه أمرًا يخالف الشرع فمزقـه وضرب الخادم . وشق ذلك علـى السلطان محـمد وغضب من فعـل الشيخ وعزله مـن منصبه ، ووقع بـينهما نـفور وجفوة ورحـل الكوراني إلى مصـر حيث استقبله سلطانـها قيتباي وأكرمه غاية الإكرام وأقام عـنده برهة من الزمن . وما لبث الفاتح أن ندم على ما كـان منه فكتب إلى السلطان قايتباي يـطلب منه أن يرسل إليه الشيخ الكوراني (فحكى السلطان قيتباي كتاب السلطان محمد خان للشيخ الكوراني ثم قال له : لا تذهب إليه فإني أكرمك فوق ما يكرمك هو . قال : نعم هو كذلك إلا أن بيني وبينه محـبة عظيمة كما بين الوالد والولد . وهـذا الذي جرى بيننا شيء آخر وهو يعرف ذلك منـي ويعرف أني أميل إليه بالطبع فإذا لـم أذهب إليه يفهم أن المنع من جانبك فتقـع بينكما عداوة . فاستحسن السلطان قـيتباي هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً وهـيأ له ما يحتاج إلـيه من حوائج السفـر وبعث معه هدايا عظـيمة إلى السلطان مـحمد خان ، وأسنـد إليه الفاتح القضـاء ثم الإفتاء وأجزل لـه من العطاء وأكرمه إكرامًا لا مزيد عليه [1] .

قال عنه الشوكاني : (. . وانتقل من قضـاء العسكر إلى منصب الفتوى وتردد إليه الأكـابر وشرح (جمع الجـوامع) وكثر تـعقبه لـلمحلى (جلال الـدين المحلي المفسر) وعـمل تفسيرًا ، وشرحًـا للبخاري وقصيـدة في علم العروض نحو سـتمائة بيت، وأنشأ بإسطنبول جامعًا ومدرسة سماها دار الحديث وانثالت عليه الدنيا وعمر الدور وانتـشر عـلمه فـأخذ علـيه الأكـابر وحج في سنـة (٨٦١هـ) إحدى وسـتين

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٨٩ .

وسبعمائة ولم يزل على جلالته حتى (مات) في أواخر سنة (٧٩٣هـ) ثلاث وتسعين وسبعمائة وصلى عليه السلطان فمن دونه ومن مطالع قصائده في مدح سلطانه :

هو الشمس إلا أنه الليث باسلا   هو البحر إلا أنه مالك البر

وقد ترجمه صاحب (الشقائق النعمانية) ترجمة حافلة . . . وأنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له ، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة ، وأنه كان لا يأتي إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه وكان يقول له : (مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط ، وذكر له مناقب جمة تدل على أنه من العلماء العاملين. . .)[1].

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكان أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه .

وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي إلى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين في تفسير القرآن فيقوم في كل مرة واحدة منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه ، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ويشجع هؤلاء العلماء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة .

اهتمامه بالشعراء والأدباء :

ذكر مؤرخ الأدب العثماني أن السلطان محمداً الفاتح كان (راعيًا لنهضة أدبية ، وشاعرًا مجيدًا حكم ثلاثين عامًا كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء وعرف بأبي الفتح ؛ لأنه غلب على إمبراطوريتين ، وفتح سبع ممالك واستولى على مائتي مدينة وشاد دور العلم ودور العبادة ، فعرف كذلك بأبي الخيرات) [2] .

وكان الفاتح مهتمًا بالأدب عامة والشعر خاصة ، وكان يصاحب الشعراء

---

(١) البدر الطالع (١/ ٤١) .

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٤٧ .

ويصطفيهم ، واستوزر الكثير منهم مثل: أحمد باشا محمود ، ومحمود باشا، وقاسم الجزري باشا ، وهؤلاء شعراء [١] وكان في بلاط الفاتح ثلاثون شاعرًا يتناول كل منهم راتبًا شهريًا قدره ألف درهم وكان طبيعيًا بعد هذا الاهتمام أن يتفنن الشعراء والأدباء في مدح السلطان محمد لما قدمه إلى العلم والأدب من كريم الرعاية وجميل التشجيع .

وكان محمد الفاتح ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاقب الذي يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاطه [٢] .

اهتمامه بالترجمة :

كان السلطان محمد الفاتح متقنًا للغة الرومية ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية من ذلك كتاب « مشاهير الرجال » لبلوتارك ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور آلات الجراحة وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية .

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي جورج إميروتزوس ثم طلب إليه الفاتح والى ابنه (ابن العالم الرومي) الذي كان يجيد اللغتين الرومية والعربية بترجمة الكتاب إلى العربية وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغتين العربية والرومية وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمة وكان العلامة علي القوشجي وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك كلما ألف كتابًا بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح .

وكان الفاتح مهتمًا باللغة العربية ؛ لأنها لغة القرآن الكريم كما أنها من اللغات العلمية المنتشرة في ذلك العهد ، وليس أدل على اهتمام الفاتح باللغة العربية من أنه

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص٢٤٧ .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٩٣ .

طلب إلى « المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها » . ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم وعين الشيخ لطفي أمينًا عليها ، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت عام ١٤٦٥م وقد وصف الأستاذ ديزمان هذه المكتبة بأنها بمثابة نقطة تحول في العلم بين الشرق والغرب (١) .

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات :

كان السلطان محمد الفاتح مغرمًا ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءً ورونقًا واهتم بالعاصمة (إسطنبول) اهتمامًا خاصًا وكان حريصًا على أن يجعلها (أجمل عواصم العالم) وحاضرة العلوم والفنون ، وكثر العمران في عهد الفاتح وانتشر واهتم بدور الشفاء ووضع لها نظامًا مثاليًا في غاية الروعة والدقة والجمال ، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب - ثم زيد إلى اثنين - من حذاق الأطباء من أي جنس كان ، يعاونهما كحال وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى : أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية ، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم وأن لا تصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها ، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفًا بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم(٢) .

الاهتمام بالتجارة والصناعة :

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٩٦ .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص٤١٣ .

الوسائل والعوامل والأسباب وكان بذلك مقتفيًا خط آبائه وأجداده السلاطين الذين (كانوا دائمًا على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم وأن كثيرًا من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا عندما خلصها الفتح العثماني مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها ، ومن هذه المدن « نيقية » وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة وأنشؤوا الكباري الجديدة مما سهل حركة التجارة في جميع أجزاء الدولة واضطرت الدول الأجنبية من فتح موانيها لرعايا الدولة العثمانية ليمارسوا حرفة التجارة في ظل الراية العثمانية وكان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء الدولة وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة [١] ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد [٢] .

الاهتمام بالتنظيمات الإدارية :

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته ولذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شئون الإدارة المحلية في دولته وكانت تلك القوانين مستمدة من الشرع الحكيم وشكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الغراء وجعله أساسًا لحكم دولته ، وكان هذا القانون مكونًا من ثلاثة أبواب ، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات ، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أيًا كان أصله وجنسه [٣] .

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٤١٤ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٤١٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص١٥٤ .

واهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة مع جيرانهم من المسلمين ، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم ، وأشاع العدل بين رعيته ، وجد في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق ، وأجرى عليهم أحكام الإسلام ، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية .

وأبقى السلطان محمد النظام الذي كان سائدًا لحكم الولايات أيام أسلافه ، وأدخل عليه بعض التعديلات الطفيفة التي تناسب عصره ودولته ، وكانت الدولة تنقسم إلى ولايات كبرى يحكمها أمير الأمراء وكان يسمى « بكلربك » وإلى ولايات صغرى ويحكمها أمير اللواء ، وكان يسمى « سنجق بك » وكلا الحاكمان كان يقوم بأعمال مدنية وعسكرية في آن واحد ، وترك لبعض الإمارات الصقلبية في أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلي فكان يحكمها بعض أمراء منها ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة وهو يعزلهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو فكروا في الثورة على الحكومة العثمانية .

وعندما تعلن الدولة الجهاد وتدعو أمراء الولايات وأمراء الألوية ، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزًا تامًا ، وذلك حسب نسب مبينة ، فكانوا يجهزون فارسًا كامل السلاح قادرًا على القتال عن خمسة آلاف آقجة من إيراد إقطاعه ، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس ، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان ، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية [١] .

وقام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء ، واتخذ الكفاءة وحدها أساسًا في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته . واهتم بالنظام المالي ووضع القواعد المحكمة الصارمة في جباية أموال الدولة وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيع على الدولة ثروات هائلة .

لقد أظهر السلطان محمد في الناحية الإدارية كفاءة ومقدرة لا تقلان عن كفاءته

---

(١) السلطان محمد الفاتح ، ص١٥٥ .

ومقدرته في الناحيتين السياسية والحربية (١) .

اهتمامه بالجيش والبحرية :

لقد أنشأ الجيش النظامي من زمن السلطان أورخان واهتم من جاء بعده من السلاطين بتطوير الجيش وخصوصًا السلطان محمد الذي أولى الجيش رعاية خاصة ، فالجيش في نظره من أسس الدولة وأركانها المهمة ، فأعاد تنظيمه وترتيبه وجعل لكل فرقة (أغا) يقودها وجعل لقيادة الإنكشارية حق التقدم على بقية القواد ، فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذي جعل له السلطان القيادة العليا للجيش .

وقد تميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي، بإنشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة ، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة ، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية ، وكانت هناك تشكيلات عسكرية متنوعة في تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة ، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال ، وكان هناك صنف من الجنود يسمى « لغمجية » وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء ولقد تطورت الجامعة العسكرية في زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات ، وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين وقد أكسب هؤلاء العثمانيين شهرة عريضة في الدقة والنظام (٢) .

لقد حرص السلطان محمد على تطوير الجيش البري والقوة البحرية وظهرت أهميتها منذ فتح القسطنطينية ، حيث كان للأسطول البحري العثماني دور واضح في إحكام حصارها وتطويقها من البحر والبر جميعًا وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٤٠٦ ، ٤٠٧ .

(٢) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٦٢ .

العناية بالسلاح البحري ، فلم تمض إلا مدة من الزمن حتى سيطر الأسطول العثماني على البحرين الأسود والأبيض وعندما نطالع كتاب (حقائق الأخبار عن دول البحار) لمؤلفه إسماعيل سرهنك ، نلاحظ اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية ، وأنه كان اهتمامًا بالغًا استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحري العثماني ، ولقد استفاد من الدول التي وصلت إلى مستوى رفيع في صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة « البندقية » و « جنوا » أكبر الدول البحرية في ذلك الوقت (١) وعندما وجد في سيئوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر السلطان محمد بأخذها وبناء سفن على نمطها مع إدخال التحسينات عليها (٢) .

وكان الأسطول العثماني تشرف الترسانة على إدارته وكانت إحدى فروعه الخاصة وتسمى بطافة العزب ، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندي بحري تتألف من : القبطان ، وقواد السفن ، والضباط ، والبحارة (٣) .

اهتمامه بالعدل :

إن إقامة العدل بين الناس كان من واجبات السلاطين العثمانيين ، وكان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آبائه - شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة ويمنحهم مرسوم مكتوب يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم وقد أُعطي هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

وقد كانت تقارير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائمًا بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز ، وكان السلطان الفاتح

---

(١) ، (٢) انظر : محمد الفاتح ، ص٤١١ .

(٣) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٦٢ .

عند خروجه إلى العزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته .

وكان على إدراك تام بأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة وأبصرهم بمواقعها وأشد الناس حرصًا على إنفاذها وكان يرى أن العلماء في الدولة بمنزلة القلب في البدن ، إذا صلحوا صلحت الدولة ولذلك اعتنى الفاتح بالعلم وأهله ويسر سبل العلم على طالبيه وكفاهم مؤونة التعيش والتكسب ليتفرغوا للدرس والتحصيل ، وأكرم العلماء ورفع منزلتهم ، وقد اعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس ، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة ، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة ، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة والحماية(١).

وتحدثنا كتب التاريخ : أن أحد غلمان محمد الفاتح ظهر منه بعض الفساد بأدرنة فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع ، فركب إلى القاضي بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضربًا شديدًا فما أن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به ، وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة . وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم فالتمسوا من المولى محيي الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان ، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه فقال له المولى محيي الدين : إن النائب (أى القاضى بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء فلم يكن هو عند الضرب قاضيًا فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (قتل الغلام) فسكت السلطان محمد خان . ثم جاء الغلام إلى قسطنطينية فأتى به الوزراء إلى السلطان محمد خان لتقبيل يده شكرًا

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٤٠٩ .

للعفو عنه . فأحضر السلطان محمد خان عصًا كبيرة فضربه بنفسه ضربًا شديدًا حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالجوه فبرئ ثم صار ذلك الغلام وزيرًا للسلطان بايزيد خان واسمه داود باشا ، وكان يدعو للسلطان محمد خان ويقول : إن رشدي هذا ما حصل إلا من ضربه (١) . أما القاضي المرتشي فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل .

وكان السلطان الفاتح ـ برغم اشتغاله بالجهاد والفتوحات إلا أنه كان يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوي وكان كثيرًا ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس بنفسه ويستمع إلى شكواهم بنفسه (٢) كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات والأخبار التي لها علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية ، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها ، وقد استنبط السلطان الفاتح هذه المعاني من حال سليمان عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ [النمل : ٢٠] وذلك بحسب ما تقتضيه أمور الملك ، والاهتمام بكل جزء فيه ، والرعاية بكل حالة فيه وخاصة الضعفاء (٣) .

***

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٤٠٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٤١٠ .
(٣) انظر : تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٧) .

المبحث السابع

وصية السلطان محمد الفاتح لابنه

هذه وصية محمد الفاتح لابنه وهو على فراش الموت والتي تعبر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة ، وقيمه ومبادئه التي آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها : (ها أنذا أموت ، ولكني غير آسف لأني تارك خلفًا مثلك ، كن عادلاً صالحًا رحيمًا ، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز ، واعمل على نشر الدين الإسلامي ، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض ، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ، ولا تفتر في المواظبة عليه ، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش ، وجانب البدع المفسدة ، وباعد الذين يحرضونك عليها ، وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد ، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم ، وابذل إكرامك للمستحقين .

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة ، فعظم جانبهم وشجعهم ، وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال .

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند ، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك ، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة ، فإن الدين غايتنا ، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا .

خذ مني هذه العبرة : حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة ، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة ، فالزم مسلكي ، واحذ حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو ، أو أكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك) (١) .

---

(١) السلطان محمد الفاتح ، ص١٧١ ، ١٧٢ .

١ - كن عادلاً صالحًا رحيمًا :

لقد قام محمد الفاتح بهذه المبادئ مع النصارى الذين أصبحوا من رعايا دولته وعندما دخل القسطنطينية فاتحًا كان يحارب حرب الإسلام (التي لا تهتك فيها حرمة، ولا يقتل فيه صبي ولا شيخ ولا امرأة ، ولا يحرق فيها زرع ، ولا يتلف فيها ضرع ، ولا يمثل فيها بإنسان ، ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين) [(١)] .

كان محمد الفاتح وهو يمثل إسلامه وعقيدته ومنهجه الإسلامي في الحرب على تعاليم الصديق أبي بكر رضي الله عنه في معاملته للروم (لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . . اندفعوا باسم الله) [(٢)] .

لقد دخل محمد الفاتح إلى قلب العاصمة البيزنطية وأعطى عالم الغرب النصراني دروسًا في العدالة والرحمة وأصبحت معلمًا من معالم التاريخ العثماني .

إن الدولة العثمانية سارت على منهج الإسلام ، فأخذت منه العدالة والرحمة بالرعايا الذين حكموهم ولقد تحدث عبد الرحمن عزام عن رحمة العثمانيين وعدالتهم بالشعوب التي حكموها فقال : (وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة ، ولم تكن صفة الرحمة مميزاتها ، وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق. . . ولقد سمعت بنفسي حديث هذه الرحمة في « بسرابيا » من رومانيا على نهر « الدنيستز » وقيل لي : إن أمثلة الفلاحين في هذه الأطراف النائية للملك العثماني لا تزال تعبر عن رحمة التركي وعدله ، ومنها ما يشير إلى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض

---

(١) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذلي ، ص١٠٤ .

(٢) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذلي ، ص١٠٦ .

، وقد لفت نظري في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رحلاتي المتعددة أمثلة وأساطير لا تزال تشير إلى ما استقر في نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركي المسلم كرحيم عادل .

وفي سنة ١٩١٧م كنت في فيينا فروى لي أن البولونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانية إلى جاليسيا مددًا للنمساويين) (١) .

(. . . بأن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين في أوربا ، وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من همجيتها وقسوتها وعرفت المساواة والإنصاف ، ويكفى أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظامًا دوليًا متعاهدًا عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون . وكانت هناك عهود دولية بين الملداف والبلونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من « البويار » إلى أحد هذه الأوطان ، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين .

جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ﷺ ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عددًا من أية أمة من الأمم التي سادوها ، فوصلوا على رؤوسهم جميعًا إلى فيينا ، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد ، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا) (٢) .

إن محمدًا الفاتح سار على منهج الرحمة والعدالة وأوصى أحفاده من بعده أن يلتزموا نفس المنهج الذي يمثل حقيقة الإسلام .

٢ ـ وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز :

وهذا ما قام به السلطان محمد بنفسه حيث حرص على حماية كل رعايا الدولة سواء مسلمين أو نصارى ومن القصص اللطيفة في هذا المعنى أنه كان على أهل جزيرة خيوس دين قدره أربعون ألف دوقة لتاجر من تجار « غلطة » يدعى فرانسسكوا

(١) الرسالة الخالدة ، ص٢٢ ، ٢٤ .

(٢) انظر : المسألة الشرقية ، ص١٠٧ .

درا بيريو ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى السلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف أن هذا التاجر من رعاياه الذين يجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم وأرسل إلى الجزيرة عدة سفن بقيادة حمزة باشا إلا أن أهالي جزيرة خيوس قتلوا بعض الجنود ورفضوا الانقياد ودفع الحقوق ، فقال محمد الفاتح للتاجر درا بيريو : (أنا الذي سيتحمل دينك من أهل الجزيرة وسأطلب به مضاعفًا ثمنًا لدم الجنود الذين هلكوا) [١] .

وسير السلطان إلى هذه الجزيرة أسطولاً وقام هو بقيادة الجيوش بنفسه إلى الجزر القريبة منها وفتح أينوس بغير حرب ولا قتال وبادرت جزيرتا أيمبروس وساموتراس إلى الاستسلام وفتحتا أبوابهما على مصاريعها للعثمانيين ، فاضطرت جزيرة خيوس إلى دفع ما عليها من دين للتاجر الجنوي ودفعت للسلطان جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة ، ودفعت له فوق ذلك تعويضًا للسفن العثمانية التي غرقت [٢] .

إن حماية الرعية والحفاظ على حقوقهم من واجبات الدولة الإسلامية .

٣ ـ (واعمل على نشر الدين الإسلامي ، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض) :

كان السلطان محمد الفاتح في حروبه لا ينسى أنه داعية إلى الإسلام ولذلك كان يشجع قواده وجنوده على نشر الدين والعقيدة والإسلام ويثنى على القادة الذين تفتح المدن على أيديهم ، فعندما أمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه إلى أثينا واستولى عليها وضمها إلى الدولة العثمانية وتحرك القائد عمر بجيشه واضطرت المدينة للتسليم وزار السلطان الفاتح المدينة بعد عامين من فتحها قال: (ما أعظم ما يدين به الإسلام لابن طرخان) .

لقد اهتمت الدولة العثمانية بالدعوة إلى الله وتركت بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة في أوروبا ؛ فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات إسلامية تقاوم شتى أنواع الضغوط التي بذلت لتحويلها إلى المسيحية ولا

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٢١٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٢١٨ .

زالت هذه الأقليات الإسلامية تعيش إلى يومنا هذا في بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغسلافيا يصل أعدادها إلى الملايين من البشر [١] وهذا يرجع إلى فضل الله على تلك الشعوب ثم إلى سياسة السلاطين العثمانيين الذين يحرصون على هداية الناس ودخولهم في الإسلام .

٤ ـ (قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه) :

إن سلاطين الدولة العثمانية قبل زمن محمد الفاتح وبعده نشأوا نشأة إسلامية، خالصة ، مشوبة بإيمان عميق ، متوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة، خاضوا من أجلها حروبًا دينية شديدة ، وكانت أجمل عبارة على ألسنة العثمانيين عند التنادي للجهاد الزحف إلى الفتوحات إما غاز وإما شهيد ، فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازي ـ أي المجاهد في سبيل الله ـ وظل هذا اللقب الرفيع يتقدم كل الألقاب والنعوت بالنسبة للسلاطين العظام ، وكانت غاية الدولة العثمانية (الدفاع عن الإسلام ورفع رايته على الأنام) .

لذلك صبغت الدولة شعبًا وسلطانًا ، حكومة وجيشًا ثقافة وتشريعًا ، نهجًا وضميرًا ، هدفًا ورسالة ، بصبغة إسلامية خالصة منذ النشأة وعلى مدى سبعة قرون، لقد كان اهتمام السلاطين بأمر الدين عظيمًا وقدموه على كل شيء ، وواظبوا عليه إلى أقصى حدود وأكدوا أنهم لا ينتسبون إلا للإسلام وتراثه وحضارته ، وكان الوطن عندهم هو كل أرض يسكنها المسلمون ، وكلمة الملة تعني: الأمة والدين معًا، وذلك كان هدف المنهج التربوي في جميع المدارس والجامعات والمعاهد ، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم في الكتاتيب وجميع المسلمين كانوا يسجلون في دوائر النفوس ـ سجلات المواليد ـ وفي التذاكر العثمانية ـ بطاقات الهوية ـ كمسلمين فحسب ، دون أن يذكر إلى جانب ذلك فيما إذا كانوا من الأتراك ، أو من العرب أو من الشراكسة أو الألبان أو الأكراد، إن ما يهم الدولة كان ينحصر في ملتهم في ديانتهم ؛ إنهم مسلمون وكفى ، واعتبر العثمانيون أي مقاتل مسلم جاهد في سبيل

---

(١) انظر : الدولة العثمانية دولة إسلامية ، د . عبد العزيز الشناوي (١/ ٢٩، ٣٠).

الله ميراثهم البطولي وخلفيتهم التاريخية ، وإن تباينت الأنساب ، وتباعدت الأزمان؛ من ذلك المجاهد « عبد الله البطال » الذي استشهد في معركة أكرنيون في آسيا الصغرى عام ١٢٢ للهجرة ، زمن الدولة الأموية والذي يقول عنه الطبري وهو يعلق على حوادث سنة ١٢٢هـ : (وفيها قتل عبد الله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم) [(١)] .

يعتبره العثمانيون بطلهم القومي وبين « عبد الله البطال » العربي وقيام الدولة العثمانية ما يقرب من سبعمائة عام ، لقد كان تاريخ العثمانيين وأبطال العثمانيين ، نسب الإسلام ، وتاريخ الإسلام ، ومجاهدي الإسلام [(٢)] .

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلقبون بكثير من الألقاب والنعوت التي تبين أن هدفهم الأكبر ومقصدهم الأسمى هو خدمة دين الله تعالى، فكانوا يلقبون بمثل: (سلطان الغزاة ، والمجاهدين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وخليفة المسلمين)[(٣)] .

٥ ـ (ولا تستخدم الأشخاص الذي لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش) :

ولذلك اهتم سلاطين الدولة العثمانية بإنشاء جامعات لتخريج قادة للجيش وللوظائف المهمة في الدولة ووضعوا منهجًا تربويا لإعداد القادة وخصوصًا في داخل الجيوش وحرصوا على أن يختاروا لمناصب الدولة الأمناء والأكفاء أصحاب العقول والنهى والتقى وأسندوا إليهم الولايات والقيادات في الجيوش ومناصب القضاة، وباعدوا عنهم كل من لا يهتم بأمر الدين ، ويجتنب الكبائر والفواحش هكذا كان السلاطين الأوائل .

٦ ـ (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها) :

إن السلاطين العثمانيين الأوائل ساروا على منهج أهل السنة والجماعة وعرفوا

---

(١) تاريخ الطبري ، الجزء الثاني حوادث سنة ١٢٢هـ .

(٢) المسألة الشرقية ، ص٥٧ .

(٣) المسألة الشرقية ، ص٦٥ .

خطورة البدع والاقتراب من أصحابها واكتفوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة واجتهادات العلماء الراسخين .

إن الشريعة الإسلامية الغراء التي سار عليها السلاطين العثمانيون ذمت البدع.

قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣].

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

قال ابن عطية : (هذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد)[١] .

وفي الحديث الشريف قال ﷺ: « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٢].

وفي الصحيح عن حذيفة أنه قال : يا رسول الله : هل بعد هذا الخير شر؟

قال : « **نعم ؛ قوم يستنّون بغير سنتي ، ويهتدون بغير هديي** ».

قال : قلت : هل بعد ذلك الشر شر ؟

قال : « **نعم ؛ دعاة على نار جهنم ، من أجابهم قذفوه فيها** ».

قلت : يا رسول الله : صِفْهم لنا .

قال : « **نعم ؛ هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا** ».

قلت : فما تأمرني إن أدركت ذلك ؟

قال : « **تلزم جماعة المسلمين وإمامهم** ».

---

(١) انظر : بدر التمام في اختصار الاعتصام لمحمد الجزائري ، ص٣٢ .
(٢) مسلم (٣/ ١٣٤٤) .

قلت : فإن لم يكن إمام ولا جماعة ؟

قال : « **فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعضّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك** » (١) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال :« **لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به ، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ**» (٢) .

إن الابتعاد عن المبتدعة ومحاربتهم من صميم الدين :

- لأن المبتدع لا يقبل منه عمل ، وينزع منه التوفيق ، وملعون على لسان الشريعة، ويزداد من الله بُعدًا ، ممنوع من شفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة ، مُثير للعداوة والبغضاء بين أهل الإسلام ، تارك للسنن ، يُلقى عليه الذل في الدنيا والآخرة ، ويخاف عليه من سُوء الخاتمة ، ويَسْوَدّ وجهه في الآخرة ، ويُخشى عليه من الفتنة) (٣) .

ولذلك كانت وصية السلطان محمد - رحمه الله - لمن بعده (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها) .

٧ - وسع رقعة البلاد بالجهاد :

إن السلاطين العثمانيين الأوائل قاموا بتوسيع رقعة الدولة بالجهاد وبسطوا الأمن وقمعوا الأخطار التي هددت دولتهم ، وعملوا على تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يستطيع الأعداء أن يظفروا بثغرة أو ينتهكوا محرمًا ويسفكوا دمًا مسلمًا أو معاهدًا ، وعمل السلطان محمد ومن قبله على إعداد الأمة إعدادًا جهاديًا وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى يسلموا أو يدخلوا في ذمة المسلمين، ولقد صبغ المجتمع العثماني بالصبغة الإسلامية الجهادية الدعوية وكان أفراد الجيش يعدون للحياة الجهادية العنيفة منذ نعومة أظافرهم، إعدادًا دقيقًا

---

(١) مسلم ، كتاب الإمارة رقم١٨٤٧ .

(٢) انظر : بدر التمام في اختصار الاعتصام لمحمد الجزائري ، ص٣٥ .

(٣) المصدر السابق بتصرف ، ص٣٧ ، ٣٨ .

كاملاً ولقد حققت الجيوش العثمانية انتصارات رفيعة في الساحات الأوروبية[١]، لقد (حققت الدولة العثمانية إلى عهد سليمان القانوني آمالاً عظيمة كان يستهدفها المسلمون منذ تسعة قرون برفع الراية المحمدية على قلاع كثير من العواصم الكبرى في أوروبا وإخضاع كثير من المماليك والإمارات للحكومة الإسلامية وأخذ ظل الإسلام يمتد حتى أوشكت جيوش المسلمين في شرق أوروبا وغربها أن تلتقي في الأرض الكبيرة) [٢] .

ومن المؤتمر السابع لوزراء خارجية الدول الإسلامية في إسطنبول ألقى المجاهد البروفسور المهندس نجم الدين أربكان خطابًا استرجع فيه صدى الماضي الإسلامي الذي مثلته الدولة العثمانية فقال : (... إن هذا القصر الذي شاء الله أن يعقد فيه هذا المؤتمر الإسلامي الكبير وقد نقشت على بابه كلمة الإسلام الجامعة : « لا إله إلا الله » . . هو قصر السلطان محمد الفاتح الذي بناه عقب فتح إسطنبول . . كيف لا يكون هذا المكان تاريخيًا ومنه كانت تدبر شئون العالم الإسلامي ردحًا من الزمن ؟ وكيف لا يكون لتاريخنا ومنه كانت تنطلق جيوش المسلمين إلى جميع أنحاء الدنيا، مجاهدة في سبيل الله ، تنشر النور والهداية والعدل أينما حلت وحيثما ضربت . . كيف لا يكون تاريخيًا وفوق هذا الحجر الذي يرتكز عليه الميكرفون كانت تنصب رايات الجيوش الإسلامية ، المنطلقة للذب عن ديار المسلمين جميعًا . . وأذكر على سبيل المثال لا الحصر : أن قرار إرسال الأسطول الإسلامي للحيلولة دون وقوع كل من إندونيسيا والفلبين في براثن الاستعمار الهولندي اتخذ من هذا المكان ، وفيه أيضًا اتخذت قرارات إرسال الجيوش والأساطيل الإسلامية لحماية شمال إفريقيا من الغزاة الطامعين .

وفوق هذا كله فإن هذا البناء التاريخي يضم بين جدرانه لواء الرسول الأعظم ﷺ وبردته المباركة وسيوفه وكثيرًا من آثاره الشريفة . .) [٣] .

---

(١) انظر : المسألة الشرقية ، ص٦٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٦٣ .

(٣) المسألة الشرقية ، ص٦٣ - ٦٥ .

لقد كانت الدولة تعطي لمبدأ الجهاد أهمية قصوى ولذلك أعدت شعبها وجيشها لتحقيق هذا المبدأ الرباني وحققت من خلاله ثمرات مهمة للإسلام والمسلمين من أهمها:

- إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين .
- دخول الناس في دين الله أفواجًا [١] .
- إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته .

لقد انصبغت الدولة العثمانية بالروح الجهادية ووضعت أهدافًا لها من أهمها:

- إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض .
- دفع عدوان الكافرين .
- إزاحة الظلم عن الناس .
- نشر الدعوة الإسلامية بين البشر [٢] .

٨ ـ (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد) :

إن السلاطين العثمانيين كانوا يرون أن الدولة هي الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأي الأمة ، والمكلفة بحماية مصالحها ، فمسؤولية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع وإنما هي مسئولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الإسراف والتبذير والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال وأهم موارد بيت المال:

- جمع الزكاة المفروضة وتوزيعها في مصارفها المشروعة .
- ترتيب الخراج على أملاك الدولة المعمورة وتحصيل عائداته للإنفاق العام على الجيش وتنمية المرافق العامة .
- جباية الجزية على المعاهدين مقابل إعفائهم من القتال مع المسلمين .

---

(١) انظر : فقه التمكين في القرآن الكريم ، لعلي محمد الصلابي ، ص٣٦٩ ـ ٣٧٥.

(٢) انظر : فقه التمكين في القرآن الكريم ، لعلي محمد الصلابي ، ص٣٦٦ ، ٣٦٧ .

- تحصيل عشور التجارة على الواردات من خارج نطاق الدولة العثمانية.

- التوظيف بقدر الحاجة على أفراد الأمة سواء كان تطوعيا أو إلزاميًا لإنفاقها في دروب الجهاد وسائر المصالح العامة طبقًا لقاعدة المصالح المرسلة .

- تشغيل الموارد وحمايتها كالحمى والمناجم وإحياء الموات ، وتحصيل أنصبة الدولة منها لاستخدامها في مجالات الإنفاق الحكومي [(١)] .

وعلى الدولة أن تراقب النشاط الاقتصادي وتحرص على تطبيق أحكام الشريعة فيه ، وتشمل :

- ضبط المقاييس والمواصفات المعيارية التي يحتاجها الناس في أسواقهم مثل المكاييل والموازين ، ومواصفات البضائع الجيدة .

- منع الغش ، وإبطال العقود الفاسدة في البيع والعمل (الاستضاع).

- الأمر بالمعروف في المعاملات كالصدق والعدل والوفاء في المعاملة كالبيع والشراء والنهي عن المنكر في البيوع كالحلف الكاذب على السلعة .

- منع تلقي الركبان والمناجشة في البيع والتدليس والغبن الفاحش وغيره من الأساليب التي تؤدي إلى العداوة والبغضاء بين الناس .

- منع ترويج المحرمات كالخمر والخنزير وآلات القمار والميسر ، ووسائل اللهو المؤدي إلى تمويت القلوب .

- منع مظاهر الترف والإسراف ، والتشجيع على نبذها [(٢)] .

٩ - (وإياك أن تمد يدك إلى أموال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام) :

إن وظيفة الدولة تنفيذ أوامر الشريعة والشريعة جاءت لحفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم . وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي ، قال

---

(١) انظر : اقتصاديات الحرب في الإسلام ، د غازي التمام ، ص١٣٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص١٣٨ .

تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

وحرم السرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة فقال تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة : ٣٨] . وكذلك حرم الإسلام الربا الذي يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران : ١٣٠] .

وحرم كذلك الغش والاحتكار والنهب والاختلاس والغلول وغير ذلك من أشكال الاعتداء على المال وكل ذلك داخل في أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه.

ووظيفة الحاكم: حماية أموال الرعية من السرقة والنهب لا أن يمد يده بغير وجه حق ويعتدي على أموال الناس .

١٠ ـ (واضمن للمعوزين قوتهم وابذل إكرامك للمستحقين) :

كان السلاطين العثمانيون يتسابقون في الإحسان للفقراء والمساكين وأبناء السبيل . . وكل من هو محتاج إلى البر والإحسان وقامت الدولة بأعمال جليلة في هذا الباب بل أوقف السلاطين والوزراء أوقافًا عظيمة على طلاب العلم والفقراء والمساكين والأرامل وغير ذلك وكان الوقف ركنًا أساسيًا في اقتصاد الدولة يقول الأستاذ محمد حرب : (. . . نشطت الحركة العلمية في جوامع إسطنبول [1] . . . وكان صقوللي محمد باشا ـ على سبيل المثال ـ ينفق على الحركة العلمية في إسطنبول من دخل وقف ٢٠٠٠ قرية عثمانية في تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعة للدولة العثمانية) وأسعد أفندي قاضي عسكر الروملي (يعني البلقان) أوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتي يصلن إلى سن الزواج . وكان لدى العثمانيين أوقاف كثيرة ومتعددة ؛ مثل آخر: كانت هناك أوقاف بصرف مرتبات للعائلات المعوزة ـ غير الأكل ـ لأن الأكل المجاني له أوقاف عامة أخرى تسمى (عمارت وقفي) أي وقف

---

(١) الجامع في النظام العثماني معماريًا وإداريًا وحدة دينية وعلمية متكاملة فيها الجامع والمدرسة والمدارس الأقل من المدرسة والجامعة ـ والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيري العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى .

المطاعم الخيرية وكانت الـ (عمارات) تقدم أكلاً مجانيًا لعدد يبلغ ٢٠,٠٠٠ شخص يوميًا مجانا ، وكان مثل هذا في كل الولايات . . .) [١] .

وكان المطعم الخيري بجامع السليمانية تبلغ ميزانيته عام ١٥٨٦م ما يعادل (١٠) عشرة ملايين دولار أمريكي إلا قليلاً [٢] .

وهكذا كانت سياسة الدولة على مستوى السلاطين والأمراء والوزراء تضمن للمعوزين قوتهم وتكرم المستحقين بالإكرام .

١١ ـ (وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة فعظم جانبهم وشجعهم وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال ...):

لقد اهتم السلطان محمد الفاتح بترتيب وظائف العلماء في الجوامع الكبرى ووضع لها تقاليد سابقة ونظمها بمرسوم خاص وأهم الوظائف في المساجد الكبرى : الخطيب والإمام ، والقيم والمؤذن ويقوم المرشحون لهذه الوظائف بطلب العلم في المدارس الدينية الكبيرة التي كثيرًا ما كان السلاطين والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافسًا نبيلاً ويخضع الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرة ولكن ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر ؛ أما في الولايات الصغرى فكان الإمام يقوم بكافة المهام الدينية وخاصة في الأرياف .

وكانت المدارس التي تعد الموظفين الدينيين يوجد بها ثلاث فئات من طلبة العلم: فـ (الصوفتا) وهي أدناها تليها فئة المعيدين الذي يحمل الطالب عند التخرج منها لقب (دانشمند) أو عالم ، أما الفئة الأعلى فهي منصب المدرس ، وبلغ عدد الصوفتا في عهد السلطان مراد الثاني ٩٠ ألفًا ، وكانوا كثيرًا ما يكون لهم أثر في شؤون الدولة [٣] .

وقد استحدث محمد الفاتح لقب شيخ الإسلام وهو الذي يترأس الهيئة

(١ ، ٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٤٢٢ .

(٣) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون ، ص٤٠٥ .

الإسلامية في الدولة ، وهو يلي السلطان في الأهمية ، وكان التشريع والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد وممتلكات الأوقاف الواسعة جميعها خاضعة له ، كما كان خاضعًا له القضاة الشرعيون والقضاة العسكريون والمفتون ، وكانت الأولوية في بداية نشأة الدولة العثمانية لقاضي عسكر الذي رافق الجيش المحارب ، ثم صارت للمفتي رئيس العلماء والفقهاء في عهد السلطان سليمان القانوني وأصبح المفتي هو شيخ الإسلام نفسه ، وحرص السلاطين على تدعيم سلطة شيخ الإسلام فكانوا يلجؤون إلى استغلال سلطته والإفادة منها كلما تعرضوا لأزمة خطيرة ، وبلغ من ازدياد سلطة شيخ الإسلام: أنه كان يحق له إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه [١] .

كما كانت الدولة لا تقدم على حرب دون صدور فتوى منه يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين وكانت أحكام المفتي نهائية لا معقب عليها وكان الجهاز الإسلامي المنبث في جسم الدولة يضم الأشراف وهم الذين ينحدرون من سلالة الرسول ﷺ ، وكان نقيب الأشراف يحتل مكانة عالية في المجتمع [٢] .

لقد قامت الدولة العثمانية بتأسيس جهاز للهيئة الدينية الإسلامية وحرصت على أن تمتد جذورها في أوساط الشعب والجيش وكل رعايا الدولة المسلمين وقد أصبحت أفراد هذه الهيئة يتولون مناصب القضاء والإفتاء وتدريس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما في إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الشعائر الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحيا ابتغاء رفع روحهم المعنوية ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقًا إلى العراق وفارس ، وشمالاً إلى بلاد الشام ، واتجهوا إلى مصر ثم شمال إفريقية ، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس . ويذكرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث

(١) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، ص٨٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٨٩ .

النبوية الشريفة التي تدور حول الجهاد الديني والفوز بإحدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد ، ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية وقتذاك أن تدك معاقل دول الفرس والدولة البيزنطية ، كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمون الجنود في صلاة الخوف وهم في ساحات القتال . . [(١)] .

كان علماء الدولة الذين قادوا الهيئة الدينية ينظرون إلى السلطان على أنه يعتبر إمامًا للمسلمين وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولي الأمر كما يأمرهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء : ٥٩] .

وكانوا يعتقدون ليس لولي الأمر طاعة فيما وراء الشريعة ؛ لأن الطاعة لهم تبعية ، وليست أصلية ، إنها طاعة مستمدة من أصل ، وليست هي بذاتها أصلاً، وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين في أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها منهجه في الحكم وكان مما جاء في هذه الخطبة المشهورة قوله : « أيها الناس إني وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . . . » [(٢)] .

وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائرًا على هدى الله وسنة رسوله . **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»** .

وكان العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام يعتمدون على الشريعة عند الخلاف مع السلطان أو الصدر الأعظم ولا يسمحون لهم أن ينحرفوا عن مبادئ الشريعة[(٣)] وكان الشعب يقف معهم ويلتحم معهم في القضايا المصيرية؛ لأن العلماء كانوا يملكون

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية (١/ ٤٥٥ ، ٤٥٦) .

(٢ ، ٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية (١/ ٤٦٠) .

القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية ، ونشاطهم في مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قمتها الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين، ولذلك كانوا أكثر التفافًا برجل الشارع وأكثر تفاهمًا وتعاطفًا وتجاوبًا مع الأهلين [١] .

١٢ ـ (حذارِ حذارِ، لا يغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا) :

إن السلطان محمدًا الفاتح يحذر وليه من بعده أن يغتر بالمال أو الجند ويبين له خطورة إبعاد العلماء والفقهاء عن الحاكم ، كما يحذره من أن يخالف أحكام الشريعة، لأن ذلك يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكًا في الدنيا وهلاكًا وعذابًا في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله وأحكامه تبدو على حياة الأمة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

وإن الفتن تظل تتابع وتتوالى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم قال تعالى : **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النور: ٦٣] إن من الآثار عن الابتعاد عن أحكام الشريعة: أن تصاب الأمة بالتبلد وفقد الإحساس بالذات وموات ضميرها الروحي فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه ويحدث لها ما حدث لبني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى : **﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** [المائدة: ٧٨، ٧٩] .

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمرًا ونهيًا فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل : قال رسول الله ﷺ : « **كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخُذُنَّ**

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية (١/٤٦٦) .

على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا ، ولتقصرنه على الحق قصرًا أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » [(١)] .

وعندما تتغير النفوس من الطاعة والانقياد لأحكام الله إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله تتحقق فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣] كما يترتب على ذلك توقف حركة الفتوح الإسلامية وتحرم شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع أحكام الشريعة وارتكاب ما يخالفها من أفعال قبيحة وتحدث الحروب فيما بين المسلمين وتكثر الاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض كما يقوى الأعداء وتشتد شوكتهم ويغيب نصر الله على الإسلام والمسلمين ويحرموا من التمكين ويصبحوا في خوف وفزع وجوع ، وتضيع المدن والقرى ويتسلط عليها الأعداء وتتوالى المصائب وهذا ما حدث في تاريخ الدولة العثمانية المتأخر .

إن من سنن الله تعالى المستنبطة من حقائق الدين وأحداث التاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه كما حدث في تسليط النصارى على المسلمين في الأندلس [(٢)] وكما فعل اليهود والإنجليز والروس .. في تفتيت الدولة العثمانية .

إن السر في قوة العثمانيين وعزهم وشرفهم كامنة في طاعة الله وتنفيذ أحكامه، والالتزام بشريعته والجهاد في سبيله والدعوة إليه ولذلك قال محمد الفاتح لابنه: (فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا) .

١٣ ـ (واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله) :

إن تعزيز هذا الدين وإقامته في الأرض يحقق نتائج طيبة في حياة الأمة والدولة، ومن هذه النتائج تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير، لذا كان الوازع الديني ثمرة من ثمار تعزيز هذا الدين ويكون مانعًا من ارتكاب الجريمة

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث (٤٦٧٠) .

(٢) انظر : فقه التمكين عند دولة المرابطين لعلي الصلابي ، ص١٦٧ .

ومحاسبة النفس عليها ، ويكون ماثلاً أمـام العين مما يجعل النفس تخشى الله وتتقيه دائمًا وأبدًا كما أن تعـزيز الدين وإقامة الشرع يحقق المسـاواة بين الراعي والرعية في الحقوق والواجبات وتنشـر العدالة في الدولة الإسلامية لجميع ساكـنيها ، كما أن في تطبيـق الشريعة نزول البـركة ، وتوالي النعم ، إذ ليـس هناك طريق مستـقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق مستقل لصلاح الحياة في الدنيا ، إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة ، وفي تطبيقها بركات في النفوس وبركات في المشاعر وبركات في طيبات الحياة ، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به .

ومن نتائج تطـبيقها : بناء مـجتمع إسلامي معتـز بدينه وعقيدته بمـا التزمه من سلوك مصـدره كتاب الله وسُنة رسـوله ﷺ ففيهمـا المواد اللازمة لبناء الفـرد المسلم والجماعـة المسلمة والأمة المسلمـة والدولة المسلمة كـما أن من النتائج حفـز الهمم ، وبعث النفوس إلـى الأخذ بأسباب العلم والحضـارة والرقي والتقدم لما تضـمنته تلك الشريعة من الدعوة إلى الحـياة كما أنها تتضمن نبذ عفن الحيـاة الحضاري لمجتمعات الرذيلة أيا كانت وأينما وجدت[١] .

إن الناس يحتاجون إلى العلماء الربانيين ليـعلموهم دينهم ويربون نفوسهم على طاعة الله ولذلك لابد من القيادة الإسلامية من احترامهم وتقديرهم وإكرامهم ، فهم الذين يبينون للناس حكم الله ورسوله وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

١٤ ـ (ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك) :

إن هذه الوصية ترشد ولـي عهد السلطان محمد الفاتح إلـى الاعتدال والتوسط في الاستهلاك ، وهذه الوصـية فهم لأمر الله ورسوله بالقصـد والتوسط ولقد أنزل الله كثيـرًا من الآيات التي تمتدح في التفـقه وذم ما سواه من البخل والشـح والتبذير والإسراف والترف قال تعالى : ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

---

(١) انظر : تطبيق الشريعة الإسلامية للطريقي ، ص٦٠ ، ٦١ .

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] . وقال تعالى يصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] .

إن السلطان محمدًا الفاتح يرى وجوب ابتعاد الحاكم ودولته عن الإسراف لأن فيه معصية الله ورسوله .

إن الدولة العثمانية كدولة مجاهدة كانت لها خطة اقتصادية لتدبير موارد الأمة في ظروف الحرب لتأمين احتياجات جيشها ، وتوفير الحاجات الضرورية لشعبها من السلع والخدمات ولذلك كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية يمنعون الإسراف والتبذير في القطاع الحكومي والقطاع الخاص وكانت الدولة ترشد الاستهلاك العام والخاص حتى لا تقع الأمة في أزمات اقتصادية خلال الحرب التي تسبب في هزائم الأمم ، فكانت الدولة بالتعاون مع قطاعات أخرى حكومية وشعبية تقوم بما يلي:

١ - توفير الأموال اللازمة للإنفاق على الحرب ، وعلى ضروريات المجتمع من الغذاء والدواء والحماية .

٢ - توفير الإمدادات اللازمة خلال الحروب والأزمات .

٣ - تعويض النقص من مخزون السلع والأجهزة الحيوية من الإنتاج المحلي بقدر الإمكان .

٤ - السيطرة على التضخم في الأسعار الذي يصاحب عادة حالات الحرب .

٥ - التوزيع العادل للسلع والخدمات الضرورية بما يؤمن حد الكفاية لكل فئات المجتمع [١] .

إن الدول التي تقع في الترف واللهو وتصرف أموالها في غير محلها مآلها إلى الهلاك والدمار ، ولقد أدى الترف إلى انغماس بعض السلاطين المتأخرين في حياة الفسق واللهو بحيث يقضون أوقاتهم في الملذات وقضاء أوقاتهم بين الحريم وقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن أمور الحكم وتركها للصدور العظام وللحريم، فانعكس ذلك

(١) انظر : اقتصاديات الحرب في الإسلام ، ص٣٣٩ .

على ضعف السلاطين ، وعدم قدرتهم على تسيير أمور الدولة وقيادة الجيش ، مما أثر على أوضاع الدول وأدى إلى ضعفها ثم اضمحلالها وضياعها فيما بعد [١].

وفاة السلطان محمد الفاتح وأثرها على الغرب والشرق :

في شهر الربيع من عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م غادر السلطان الفاتح القسطنطينية إلى آسيا الصغرى حيث كان قد أُعد في إسكدار جيش آخر كبير ، وكان السلطان محمد الفاتح قبل خروجه من إسطنبول قد أصابته وعكة صحية إلا أنه لم يهتم بذلك لشدة حبه للجهاد وشوقه الدائم للغزو، وخرج بقيادة جيشه بنفسه ، وقد كان من عادته أن يجد في خوض غمار المعارك شفاء لما يلم به من أمراض، إلا أن المرض تضاعف عليه هذه المرة وثقلت وطأته بعد وصوله إلى إسكدار فطلب أطباءه ، غير أن القضاء حم به فلم ينفع فيه تطبيب ولا دواء ، ومات السلطان الفاتح وسط جيشه العرمرم يوم الخميس الرابع من ربيع الأول ٨٨٦هـ (٣مايو ١٤٨١م) وهو في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم نيفًا وثلاثين عامًا [٢] .

وبعد أن ذاع نبأ الوفاة في الشرق والغرب ، أحدث دويا هائلاً اهتزت له النصرانية والإسلام ، أما النصرانية فقد غمرها الفرح والابتهاج والبشرى وأقام النصارى في رودس صلوات الشكر على نجاتهم من هذا العدو المخيف [٣] وكانت جيوش الدولة العثمانية قد وصلت إلى جنوب إيطاليا لفتح كل إيطاليا وضمها للدولة العثمانية إلا أن خبر الوفاة وصلهم فانتاب الجنود هم شديد وحزن عميق واضطر العثمانيون في الدخول لمفاوضات مع ملك نابولي لينسحبوا آمنين على حياتهم وأمتعتهم وعتادهم وتم الاتفاق على ذلك إلا أن النصارى لم يفوا بما تعهدوا واعتقلوا بعض الجنود الذين كانوا في المؤخرة وصفدوهم بالحديد [٤] .

وعندما وصل خبر وفاة السلطان إلى روما ابتهج البابا وأمر بفتح الكنائس

---

(١) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ، ص٩٤ .

(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٧٢ .

(٣) ، (٤) المصدر السابق نفسه ، ص٣٧٣ .

وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات ، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع والطرقات وهي تنشد أناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع وظلت هذه الاحتفالات والمهرجانات قائمة في روما طيلة ثلاثة أيام ، لقد تخلصت النصرانية بوفاة محمد الفاتح من أعظم خطر كان يهددها [١] .

لم يكن أحد يعلم شيئًا عن الجهة التي كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس في ذلك مذاهب شتى . فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التي امتنعت على قائده مسيح باشا ؟ أم كان يتأهب للحاق بجيشه الظافر في جنوبي إيطاليا ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالي إيطاليا ففرنسا وإسبانيا ؟

لقد ظل ذلك سرا طواه الفاتح في صدره ولم يبح به لأحد ثم طواه الموت بعد ذلك[٢] .

لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التي يقصدها ويتكتم أشد التكتم ويترك أعداءه في غفلة وحيرة من أمرهم ، لا يدري أحدهم متى تنزل عليه الضربة القادمة ثم يتبع هذا التكتم الشديد بالسرعة الخاطفة في التنفيذ فلا يدع لعدوه مجالاً للتأهب والاستعداد [٣] وذات مرة سأله أحد القضاة أين تقصد بجيوشك فأجابه الفاتح: « لو أن شعرة في لحيتي عرفت ذلك لنتفتها وقذفت بها في النار . . . »[٤] .

إن من أهداف الفاتح أن يمضي بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها في الشمال ويستمر في فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا وإسبانيا وما وراءها من الدول والشعوب والأمم .

لقد تأثر المسلمون في العالم الإسلامي لوفاة محمد الفاتح وحزنوا عليه حزنًا

---

(١) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٧٤ .
(٢) انظر : محمد الفاتح ، ص٣٧٧ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص٢٥٩ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص٢٦٠ .

عميقًا وبكاه المسلمون في جميع أقطار المعمورة ، لقد بهرتهم انتصاراته ، وأعاد إليهم سيرة المجاهدين الأوائل من السلف الصالح [١] .

قال عن وفاته عبد الحي بن العماد الحنبلي في وفيات سنة ست وثمانين وثمانمائة : (. . كان من أعظم سلاطين بني عثمان وهو الملك الضليل الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهادًا وأقواهم إقدامًا واجتهادًا وأثبتهم جأشًا وقوادًا وأكثرهم توكلاً على الله واعتمادًا وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى وساق إليها السفن تجري رخاءً برا وبحرًا هجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله وحاصرها خمسين يومًا أشد الحصار، وضيق على من فيها من الكفار الفجار ، وسل على أهلها سيف الله المسلول ، وتدرع بدرع الله الحصين المسبول ، ودق باب النصر والتأييد ، وثبت على متن الصبر ، إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب ففتح إسطنبول في اليوم الحادي والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة وصلى في أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهي آيا صوفيا وهي قبة تسامى قبة السماء وتحاكي في الاستحكام قبب الأهرام ولا وهت ولا وهت كبرًا ولا هرمًا وقد أسس في إسطنبول للعلم أساسًا راسخًا لا يخشى على شمسه الأفول وبنى مدارس كالجفان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول فجزاه الله خيرًا عن الطلاب ومنحه بها أجرًا وأكبر ثواب فإنه جعل لهم أيام الطلب ما يسد فاقتهم ويكون به من خمار الفقر إفاقتهم وجعل بعد ذلك مراتب يترقون إليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا ويتوسلون بها أيضًا إلى سعادة العقبى وأنه رحمه الله

(١) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٦٨ .

تعالى استجلب العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم إليهم وعطف بإحسانه إليهم ، كمولانا علي القوشجي والفاضل الطوسي والعالم الكوراني وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام ، فصارت إستنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعليا، واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن ، فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام ، وأهل حرفها أدق الفطناء في الأنام ، وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام ، فللمرحوم المقدس قلادة من لا تحصى في أعناق المسلمين ، لا سيما العلماء الأكرمين [١] .

فرحمة الله ومغفرته ورضوانه على السلطان محمد الفاتح وأعلى ذكره في المصلحين .

* * *

(١) شذرات الذهب (٧/ ٣٤٥) .

الخُلاصة

١ ـ تعرض التاريخ العثماني لحملات التشويه والتزوير والتشكيك من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين .

٢ ـ سار مؤرخو العرب والأتراك في ركب الاتجاه المعادي لفترة الخلافة العثمانية .

٣ ـ احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الإسلامية وقامت بدعم المؤرخين في مصر والشام إلى تأصيل الإطار القومي وتعميقه من أمثال البستاني واليازجي وجورج زيدان وأديب إسحاق وسليم نقاش وشلبي شميل ، وسلامة موسى ، وغيرهم .

٤ ـ استطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومي في داخل الشعوب الإسلامية ، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الإسلامي .

٥ ـ اعتمد المؤرخون الذين عملوا على تشويه الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان والتشكيك والدس، ولقد غلب على تلك الكتب والدراسات طابع الحقد الأعمى ، والدوافع المنحرفة ، بعيدة كل البعد عن الموضوعية.

٦ ـ قام مجموعة من علماء التاريخ العثماني من أبناء الأمة بالردود على تلك الاتهامات والدفاع عن الدولة العثمانية من أهمها وأبرزها تلك الكتابة التي قام بها الدكتور عبد العزيز الشناوي في ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان « الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها » ، وما قدمه الدكتور محمد حرب من كتب مهمة مثل : « العثمانيون في التاريخ والحضارة » ، و « السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم » ، وما كتبه الدكتور موفق بني المرجة ، « صحوة الرجل المريض » .

٧ ـ ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت تعيش في كردستان ، وتزاول حرفة الرعي .

٨ ـ هاجر سليمان جد عثمان في عام ٦١٧هـ مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط في شرق تركيا حاليًا .

٩ ـ تولى زعامة قبيلة سليمان بعد وفاته ابنه أرطغرل الذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول ، وفي طريقه وجد صراعًا مسلحًا بين السلاجقة المسلمين والروم النصارى ، فانضم إلى المسلمين وكان تدخله في الوقت المناسب سببًا في تحقيق نصر السلاجقة .

١٠ ـ اقتطع القائد الإسلامي السلجوقي أرطغرل ومجموعته أرضًا من الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم ، وأتاح لهم فرصة توسيعها على حساب الروم .

١١ ـ تولى عثمان الأول قيادة قومه بعد وفاة أبيه وسار على نهج سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم .

١٢ ـ كان عثمان الأول يتميز بصفات رفيعة منها الشجاعة ، والحكمة ، والإخلاص ، والصبر ، والجاذبية الإيمانية ، والعدل ، والوفاء ، والتجرد لله في فتوحاته ، وحبه للعلم والعلماء .

١٣ ـ كانت حياة عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية ، جهادًا ودعوة في سبيل الله ، وكان علماء الدين يحيطون به ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمامة، ولقد حفظ لنا التاريخُ وصيةَ عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد .

١٤ ـ تولى السلطان أورخان الحكم بعد وفاة والده عام ٧٢٦هـ وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات ، وحرص على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في

فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد .

١٥ ـ إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان : تأسيسه للجيش الإسلامي ، وحرصه على إدخال نظام خاص للجيش ، فقام بتقسيم الجيش إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص ، أو مائة شخص ، أو ألف شخص ، وخصص خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش ، وجعله جيشًا دائمًا بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب ، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها .

١٦ ـ اهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وإلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية ونظم شئون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية ، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون وكانو يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة .

١٧ ـ تولى الحكم بعد السلطان أورخان السلطان مراد الأول عام ٧٦١هـ وكان مراد الأول شجاعًا مجاهدًا كريمًا متدينًا ، وكان محبًا للنظام متمسكًا به ، عادلاً مع رعاياه وجنوده ، شغوفًا بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين شكل منهم مجلسًا لشورته ، وتوسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد .

١٨ ـ استطاع مراد الأول أن يفتح أدرنة في عام ٧٦٢هـ واتخذ من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية من عام ٧٦٢هـ ، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا ، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية .

١٩ ـ كان السلطان مراد الأول يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية واستشهد في معركة قوصوة ضد الصرب .

٢٠ ـ قاد السلطان مراد الشعب ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره .

٢١ - تولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام ٧٩١هـ وكان شجاعًا شهمًا كريمًا متحمسًا للفتوحات الإسلامية ، ولذلك اهتم اهتمامًا كبيرًا بالشئون العسكرية واستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية ، وكان بايزيد مثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب (الصاعقة) .

٢٢ - انهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه وعجلته وعدم إحسانه لاختيار المكان الذي نزل به جيشه .

٢٣ - تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي ونشبت الحرب الأهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات وكانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية .

٢٤ - استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على إخوته واحدًا واحدًا حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سنى حكمه العثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية .

٢٥ - استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على حركة الشيخ بدر الديني الذي كان يدعو إلى المساواة في الأموال ، والأمتعة والأديان ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم في العقيدة .

٢٦ - كان السلطان محمد جلبي محبا للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة .

٢٧ - تولى أمر السلطنة مراد الثاني عام ٨٢٤هـ بعد وفاة أبيه محمد جلبي وكان محبا للجهاد ، والدعوة إلى الإسلام ، وكان شاعرًا ومحبا للعلماء والشعراء .

٢٨ - تولى محمد الفاتح حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في عام ٨٥٥هـ

وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة وقد تميز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل ، كما فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ .

٢٩ ـ كانت من أهم أعمال السلطان محمد الثاني فتحه للقسطنطينية وكان لذلك الفتح أثر عظيم على العالم الإسلامي والأوروبي وكان لفتح القسطنطينية أسباب مادية ومعنوية وشروط أخذ بها .

٣٠ ـ حرص العثمانيون على تحكيم شرع الله وظهرت آثاره الدنيوية والأخروية على المجتمع العثماني منها : الاستخلاف والتمكين ، الأمن والاستقرار ، النصر والفتح ، العز والشرف ، انتشار الفضائل وانزواء الرذائل وغير ذلك من الآثار .

٣١ ـ من أهم الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح : الحزم والشجاعة والذكاء ، العزيمة، والإصرار ، والعدالة ، وعدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان ، والإخلاص ، والعلم .

٣٢ ـ من أعمال محمد الفاتح الحضارية : بناؤه للمدارس والمعاهد ، واهتمامه بالعلماء والشعراء والأدباء والترجمة ، والعمران والبناء والمستشفيات واهتمامه بالتجارة والصناعة ، والتنظيمات الإدارية ، والجيش والبحرية والعدل .

٣٣ ـ ترك محمد الفاتح وصية عبرت أصدق التعبير عن منهجه في الحياة ، وقيمه ومبادئه التى آمن بها .

٣٤ ـ يعتبر الشيخان محمد بن حمزة المشهور بـ (آق شمس الدين) ، وأحمد الكوراني من الشيوخ الذين كان لهم أثر على محمد الفاتح .

٣٥ ـ قال الشاعر :

أسير خلف ركاب القوم ذا عرج ... مؤملاً جبر ما لاقيت من عوج

فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب السماء في الناس من فرج

وإن ظللت بقفر الأرض منقطعًا ... فما على أعرج من ذاك من حرج

« وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »

المصادر والمراجع

(أ)

١ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين ، الإمام ابن القيم ، مراجعة وتعليق طه عبد الرءوف سعد ، دار الجيل ، بيروت ـ لبنان .

٢ ـ أوروبا في العصور الوسطى ، سعيد عاشور ، الطبعة السادسة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م .

٣ ـ اقتصاديات الحرب في الإسلام ، د . غازي التمام ، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

(ب)

٤ ـ البداية والنهاية ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، دار الريان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٥ ـ البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، دار الفكر، سورية ـ دمشق.

٦ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، لمحمد بن علي الشوكاني ، دار المعرفة ، بيروت .

٧ ـ بدر التمام في اختصار الاعتصام ، اختصره أبو عبد الفتاح محمد السعيد الجزائري ، دار الحنان الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، الإمارات العربية المتحدة .

(ت)

٨ ـ تاريخ الأمم والملوك ، محمد بن جرير الطبري ، دمشق ، دار الفكر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٩ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد بك ، تحقيق الدكتور إحسان

حقي ، دار النفائس ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

١٠ ـ تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام الجابي ، تأليف يوسف آصاف ، دار البصائر ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥م / ١٩٨٥م .

١١ ـ تاريخ الدولة العثمانية ، د . علي حسون ، المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

١٢ ـ تاريخ سلاطين آل عثمان ، للقرماني ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م دار البصائر دمشق سوريا .

١٣ ـ التراجع الحضاري في العالم الإسلامي د . علي عبد الحليم ، دار الوفاء، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

١٤ ـ تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، الطبعة الثانية ، بيروت .

١٥ ـ تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل ، تحقيق : عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء ، مطبعة الشعب القاهرة ـ مصر .

١٦ ـ تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن ، لابن جرير الطبري، دار الفكر ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٥هـ .

١٧ ـ تفسير السعدي ، المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، المؤسسة السعدية بالرياض ١٩٧٧م .

١٨ ـ تركيا والسياسة العربية : أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا .

١٩ ـ تفسير القرطبي ، لأبي عبد الله القرطبي .

٢٠ ـ تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات عبد الله ابن أحمد بن محمود النسفي .

٢١ ـ تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزنتونا ، ترجمه إلى العربية عدنان محمود سلمان ، د . محمود الأنصاري ، المجلد الأول ـ منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا إستانبول ١٩٨٨م .

٢٢ ـ تطبيق الشريعة الإسلامية ، د . عبد الله الطريقي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

٢٣ ـ تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ .

٢٤ ـ تاريخ ابن خلدون ، الطبعة المصورة .

٢٥ ـ تفسير أبي السعود ، المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: الإمام أبو السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

(ج)

٢٦ ـ جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ، زيادة أبو غنيمة ، دار الفرقان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(ح)

٢٧ ـ الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ، عبد العزيز مصطفى كامل ، دار طيبة ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

٢٨ ـ الحسبة في العصر المملوكي د . حيد الصافح ، دار الإعلام الدولي ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، القاهرة .

٢٩ ـ الحكومة الإسلامية للمودودي ، ترجمة أحمد إدريس ، نشر المختار الإسلامي للطباعة والنشر القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

٣٠ ـ حقائق الأخبار عن دول البحار ، إسماعيل سرهنك ، المطبعة الأميرية ، ببولاق ، مصر الطبعة الأولى ١٣١٢هـ .

(خ)

٣١ ـ الخلافة والملك للمودودي ، تعريب أحمد إدريس ، دار القلم ، الطبعة

الأولى سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

(د)

٣٢ ـ الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، د . عبد العزيز الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية ، مطابع جامعة القاهرة عام ١٩٨٠م .

٣٣ ـ الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ، د . إسماعيل أحمد ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

٣٤ ـ الدولة العثمانية ، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، د . جمال عبد الهادي ، د . وفاء محمد رفعت جمعة ، علي أحمد لبن ، دار الوفاء ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

(ر)

٣٥ ـ الرسالة الخالدة ، عبد الرحمن عزام ، القاهرة ١٩٤٦م .

(س)

٣٦ ـ السلطان محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، عبد السلام عبد العزيز فهمي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٣٧ ـ السلاطين العثمانيون ، كتاب مصور ، طبع في تونس .

٣٨ ـ سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث ، تحقيق : عزت عبيد الدعاس ، حمص الناشر : محمد السيد .

٣٩ ـ سنن الترمذي ، لأبي عيسى الترمذي ، تحقيق : أحمد شاكر ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة .

(ش)

٤٠ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، دار الآفاق الجديدة بيروت .

٤١ ـ شرح صحيح مسلم ، الإمام النووي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(ص)

٤٢ ـ صحيح البخاري ، للإمام محمد بن إسماعيل .

٤٣ ـ صحيح مسلم : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م .

(ع)

٤٤ ـ العثمانيون في التاريخ والحضارة ، د . محمد حرب ، دار القلم ، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٤٥ ـ العثمانيون والبلقان ، د . علي حسون ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(ف)

٤٦ ـ الفتوح الإسلامية عبر العصور ، د . عبد العزيز العمري ، دار إشبيلية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

٤٧ ـ في أصول التاريخ العثماني ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار الشروق، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٤٨ ـ في ظلال القرآن الكريم ، سيد قطب ، دار الشروق .

٤٩ ـ فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، محمد مصطفى .

٥٠ ـ فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، محمد صفوت ، منشورات الفاخرية ، الرياض ودار الكتاب العربي ، بيروت بدون تاريخ .

٥١ ـ فقه التمكين في القرآن الكريم ، لعلي محمد الصلابي ، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد .

٥٢ ـ فقه التمكين عند دولة المرابطين ، علي محمد الصلابي ، دار البيارق ،

عمان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م .

(ق)

٥٣ ـ قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، د . زكريا سليمان بيومي ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، عالم المعرفة .

٥٤ ـ قيام الدولة العثمانية ، د. عبد اللطيف عبد الله دهيش ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة .

(ك)

٥٥ ـ الكامل في التاريخ ، علي بن محمد بن أبي الكرم بن عبد الكريم ، القاهرة .

(م)

٥٦ ـ المسألة الشرقية ، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ، محمود ثابت الشاذلي ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٥٧ ـ محمد الفاتح ، د . سالم الرشيدي ، الإرشاد ، جدة ، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩ م .

٥٨ ـ مجموع الفتاوي ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن القاسم .

٥٩ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خالد السبت ، المنتدى الإسلامي .

٦٠ ـ معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد ، تأليف الشيخ الحافظ أحمد حكمي رحمه الله ، تعليق عمر محمود ، دار ابن القيم للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٦١ ـ مسند الإمام أحمد ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٦٢ ـ المجتمع المدني في عهد النبوة ، الجهاد ضد المشركين ، الطبعة

الأولى١٤٠٤هـ .

٦٣ ـ مواقف حاسمة ، محمد عبد الله عنان .

٦٤ ـ منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه ، د . السيد محمد السيد نوح ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، نشرته جامعة الإمارات العربية .

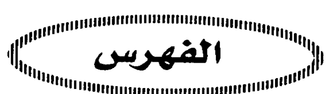
٦٥ ـ المستدرك على الصحيحين ، الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، محمد أمين دمج ـ بيروت ـ لبنان .

(ن)

٦٦ ـ النظام السياسي في الإسلام د . محمد أبو فارس ، دار الفرقان ، عمان، الأردن ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

٦٧ ـ النجوم الزاهرة ، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

***



الفهرس

الفصل الثاني
محمد الفاتح وفتح القسطنطينية